

المبحث الثالث

أهم معالم التجديد والإصلاح دولة نور الدين

اتخذ نور الدين محمود من سيرة عمر بن عبد العزيز نموذجاً يقتدي به في دولته، فقد كتب الشيخ العلامة أبو حفص معين الدين عمر بن محمود بن خضر الإربلي سيرة عمر بن عبد العزيز لكي يستفيد نور الدين منها في إدارة دولته ولقد آتت معالم الإصلاح والتجديد الراشدي في عهد عمر بن عبد العزيز ثمارها في الدولة الزنكية، فقد اقتنع نور الدين بأهمية التجارب الإصلاحية في تقوية وإثراء المشروع النهضوي وتمكينه في إيجاد وصياغة الرؤية اللازمة في نهوض الأمة وتسلمها القيادة فالتجارب التاريخية دور كبير في تطوير الدول وتجديد معاني الإيمان في الأمة ولذلك حرص على معرفة هذه السير المباركة لكي يقتدي برجالها قال أبو حفص معين الدين الإربلي في مقدمة كتابه عن عمر بن عبد العزيز وتقدمه ذلك الكتاب لنور الدين:.. علماً منه الاقتداء عن سلف الفضلاء العلاء يكمل الأجر ويبقى الذكر واتباع سنن المهديين الراشدين يصلح السريرة ويحسن السيرة وأن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه μ بالاقتداء بسلفه من الأنبياء فقال عز من قائل: {أُوَلِّيكَ اللَّهُ هَدَى اللَّهُ فَيَهْدَاهُمْ أَقْتَدَهُ} (الأنعام: ٩٠) وقال تعالى: {وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ} (هود: ١٢٠) فلذلك اشتد حرصه - أدام الله سعاده - على جمع السير الصالحة والآثار الواضحة فحينئذ رأيت حقاً على بذل الوسع في مساعدته واستنقاذ القوة في معاضدته بحكم صدق الولاء وأكد الإخاء، فصرفت وجه همتي إلى جمع سيرة السعيد الرشيد عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - والتجأت إلى الله الكريم جل اسمه أن يحسن معونتي وييسر ما صرفت إليه عزيمتي، فحين شرح الله صدري لذلك، ولاحظت أمارات المعونة، بادرت إلى جمع هذه السيرة برسم خزانته المعمورة، معونة على البر والتقوى^(١) لقد قدم هذا الشيخ الجليل منهاجاً علمياً عملياً لنور الدين زنكي من خلال سيرة عمر بن عبد العزيز، فبنى دولة العقيدة، وحكم الشريعة وقمع البدع، وأقام العدل، ورفع الضرائب والمكوس عن الأمة، وعمل على إحياء السنة، وعمق هوية الأمة، وفجر روح الجهاد فيها ونشر العلم، وساهم في تحقيق الازدهار والرخاء وكان نسيج وحده في زهده وورعه وعبادته وصدقه واهتم بالإدارة والاقتصاد والقوات المسلحة، والمدارس العلمية والمؤسسات الاجتماعية وكان شديد التقيد بأحكام الشريعة الغراء يقول شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة عن نور الدين زنكي: فأطربني ما رأيت من آثاره، وسمعت من أخباره، مع تأخر زمانه وتغير حاله، ثم وقفت بعد ذلك في غير هذا الكتاب على سيرة سيّد الملوك بعده، الملك الناصر صلاح الدين، فوجدتهما في المتأخرين كالعُمريين - رضي الله عنهما - في العدل والجهاد واجتهاداً في إعراز دين الله أي اجتهاد وهما ملكا بلدتنا وسُلطانا حُطَّتنا خصنا الله تعالى بهما، فوجب علينا القيام بذكر فضلهما، فعزمت على أفراد ذكر دولتيهما بتصنيف يتضمن التقريظ لهما والتعريف، فلعلّه يقف عليه من الملوك من يسلك في ولايته ذلك السلوك، فلا أبعد أنهما حجة من الله

(١) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٢/١) الخليفة الراشد والمصلح الكبير عمر بن عبد العزيز ص ٣٥٦.

على الملوك المتأخرين وذكرى منه سبحانه فإن الذكرى تنفع المؤمنين فإنهم قد يستبعدون طريقة الخلفاء الراشدين، ومن حدا حنوهم من الأئمة السابقين، ويقولون: نحن في الزمن الأخير وما لأولئك من نظير، فكان فيما قدر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحجة عليهم بمن هو في عصرهم من بعض ملوك دهرهم، فلن يعجز عن التشبه بهما أحد، إن وفق الله تعالى الكريم (١) وسدّد.. هذان حجة على المتأخرين من الملوك والسلاطين فله درهما من ملكين تعاقبا على حسن السيرة وجميل السريرة وهما حنفي وشافعي شفى الله بهما كل عي، وظهرت من خالقهما العناية... والفضل للمتقدّم، فكان زيادة مدة نور الدين كالتنبيه على زيادة فضله، والإرشاد إلى عظيم محلّه، فإنه أصل ذلك الخير كله مهد الأمور بعدله وجهاده وهيبته في جميع بلاده، مع شدة الفتق واتساع الخرق، وفتح من البلاد، ما استعين به على مداومة الجهاد فهان على من بعده على الحقيقة، سلوك تلك الطريقة (٢) ... فما أحقهما بقول الشاعر:

وألجس الله هاتيك العظام وإن :: بلين تحت الثرى عفواً وغفرانا
سقى ثرى أودعوه رحمةً ملأت :: مشوى قبورهم روحاً وربحاناً (٣)

وإليك أخى أخرى أهم معالم التجديد والإصلاح التي قام بها نور الدين محمود الشهيد في دولته:

أولاً: الحرص على تطبيق الشريعة:

لم تكن مقاليد الحكم في دولة نور الدين أداة لخدمة أهداف الطبقة الحاكمة، كما هو الحال في كثير من الدول والحكومات، ولا لتحقيق وحماية مصالح حفنة من البيروقراطيين، كما أنها لم تكن مجرد ذريعة عملية (برغامتية) لتسيير الشؤون المادية المنفعية الصرفة للدولة فحسب، بل إن هنالك أهدافاً أكبر بكثير، وقيماً ومبادئ أبعد مدى، كان على أجهزة الدولة أن تسعى إلى تحقيقها في واقع الحياة، وأن تبدل ما تمتلكه من قدرات وخبرات للسير بالأمة قدما صوب آفاقها الرحبة الشاملة إن تنفيذ شريعة الإسلام وقيمه ومبادئه في واقع الحياة، وبعث المجتمع الإسلامي كان هو الهدف المركزي لدولة نور الدين محمود فهي إذن دولة ملتزمة وليست صاحبة أغراض منفعية وكسب واحتراف وقد أكد نور الدين على هذه الحقيقة في أكثر من مناسبة وحشد لها الكثير من الأقوال والتأكيدات والتصريحات ودعا بحماس منقطع النظرير إلى تحقيقها، وسعى - فعلاً - إلى أن تنتقل هذه الدعوة - رغم المصاعب والعقبات - من ميدان الفكر إلى ميدان التطبيق (٤) قال: ونحن نحفظ الطرق من لصّ وقاطع طريق، والأذى الحاصل منها قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه، وهو الأصل (٥). وقال: نحن شحن (٦) للشريعة نمضي أوامرها (٧)، وقال مخاطباً أحد ولاته: انظر في

(١) كتاب الروضتين نقلا عن نور الدين محمود ١٩.

(٢) المصدر نفسه (٢٧/١).

(٣) المصدر نفسه (٢٨/١).

(٤) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٦.

(٥) الباهر ص ١٧٣ - ١٧٤.

(٦) شحن: أي الشرطة: أو القوة المشرفة على تنفيذ الشريعة.

(٧) الباهر ص ١٦٦ نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٦.

العوادي وما يجري فيها من دعاوى، وميز بين المحاسن، والمساوي، وأحمل الأمور فيها على الشريعة^(١). وقال متحدثاً إلى اثنين من كبار موظفيه: والله إنني أفكر في وال وليته أمور المسلمين فلم يعدل فيهم أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني وأخاف المطالبة بذلك (أمام الله). فإله عليكم، وإلا فخبزي عليكم حرام، ولا تريان قصة مظلوم لا ترفع إليّ، أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها وارفعاها إلي^(٢) وقال فيما يلخص موقفه الملتزم بعبارة تثير الإعجاب: إنني جئت هاهنا امتثالاً لأمر الشرع^(٣) وثمة شهادات المؤرخين تؤكد جميعاً هذا الحرص على الالتزام وعلى جعل الدولة أداة لتحقيق كلمة الله في الأرض^(٤) يقول ابن الأثير: كان نور الدين يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها^(٥). ويقول في مكان آخر: وعلى الحقيقة فهو الذي جدد للملوك اتباع سنة العدل والإنصاف، وترك المحرمات من المأكّل والمشرب والملبس وغير ذلك، فإنهم كانوا قبله كالجاهلية، همة أحدهم بطنه وفرجه لا يعرف معروفأً ولا ينكر منكراً، حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيها والأزم بذلك أتباعه وذويه، فاقتدى به غيره منهم، واستحيوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه^(٦)، ويقول أبو شامة: سمعت أبا شداد يقول: أما فكره ففي إظهار شعار الناس وتأسيس قاعدة الدين^(٧)، ويقول في مكان آخر: كان أشهى ما إليه كلمة حق يسمعها، أو إرشاد إلى سنة يتبعها^(٨). ويقول ابن كثير: كان يقوم في أحكامه بالمعدلة الحسنة واتباع الشرع المطهر... وأظهر ببلاده السنة وأمات البدعة^(٩)، ويقول ابن قاضي شهبه: كان نور الدين - لما صارت له الموصل - قد أمر كمشتكين شحنتها ألا يعمل شيئاً إلا بالشرع إذا أمره القاضي، وألا يعمل القاضي والنواب كلهم شيئاً إلا بعد مراجعة الشيخ عمر الملاء - أحد شيوخ الموصل الصالحين - وعندما حضر والي الموصل وبعض القادة والأمراء فيها إلى الشيخ عمر لكي يكتب إلى نور الدين كتاباً يطلب منه أن يسمح بتشديد العقوبة على بعض المخالفات بسبب كثرة مرتكبيها وعدم ارتداعهم: وكانت أوامر نور الدين أن تكون العقوبات مطابقة لما ورد بأحكام الشريعة بدون زيادة ونقصان ولم يجرؤ الوالي على الكتابة لنور الدين بهذا الموضوع خشية التأنيب وأعتقد أن الشيخ عمر بما له من دالة على نور الدين ربما نجح بالمطلوب، فكتب الشيخ عمر كتاباً إلى نور الدين يقول فيه: إن الزعار وقطاع الطرق والمفسدين قد كثروا ويحتاج إلى نوع سياسة، ومثل هذا لا يجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أخذ مال إنسان في البرية من يجيء ليشهد له^(١٠) فأجاب نور الدين على ظهر رسالة الشيخ بقوله: إن

(١) البرق ص ١٤٦ - ١٤٧.

(٢) الكواكب ص ٢٥ نقلاً عن نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٦.

(٣) كتاب الروضتين (٣٦/١ - ٣٧).

(٤) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٦.

(٥) الباهر ص ١٦٦ نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٦.

(٦) الباهر ص ١٦٥ - ١٦٦.

(٧) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص ٨٧.

(٨) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٧.

(٩) البداية والنهاية نقلاً عن نور الدين محمود ص ٨٧.

(١٠) عيون الروضتين (٢٧٦/١).

الله تعالى خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه لنا، فما لنا من حاجة على زيادة ما شرعه الله تعالى، فمن زاد فقد زعم أن الشريعة ناقصة، فهو يكملها بزيادته وهذا من الجراءة على الله وعلى شرعه، والعقول المظلمة لا تهتدي، فإله سبحانه يهدينا وإياك إلى الكتاب وإلى الصراط المستقيم^(١)، فلما وصل الجواب إلى الشيخ عمر جمع الناس وقرأ عليهم كتابه وجواب نور الدين عليه قائلاً: انظروا في كتاب الزاهد إلى الملك وكتاب الملك إلى الزاهد^(٢). وكان نور الدين معتنياً بحفظ أصول الديانات، ولا يمكن أحداً من إظهار ما يخالف الحق، ومتى أقدم على ذلك أدبه بما يناسب بدعته^(٣) وكان لا يقدم على إجراء ما عام أو شخصي، إلا بعد أن يستفتي الفقهاء الذين كانوا أشبه بمجلس شيوخ تشريعي أو هيئة استشارية تستلهم في قراراتها النهائية مؤشرات الشريعة الغراء بحيث لا يقدم أحد في الدولة على عمل أو إجراء إلا ويجيء ذلك العمل منسجماً مع فكر الدولة وعقيدتها وشريعتها^(٤). ولم يدع نور الدين منكرًا يسود جانباً من جوانب الحياة الاجتماعية إلا عمل على إزالته وحث موظفيه على التنفيذ الفوري لأوامره بهذا الصدد.. إنه لم يشأ أن يقاتل العدو في الخارج وفي الداخل يعيش الخراب والتفكك والعفن فيدمر الإنسان المسلم، ويفتت العلاقات الاجتماعية، ويستنزف القدرات الجهادية الخلاقة للأمة المسلمة، والتي بدونها، كانت تنتهي دائماً إلى مواقع الفرار والذلة والهزيمة. لقد قالها يوماً أحد كبار الشيوخ - برهان الدين البلخي - وجهاً لوجه أمام نور الدين: أتريدون أن تنصروا وفي عسكريكم الخمر والطبول والزمور؟ فلا والله^(٥)، وما كان نور الدين بحاجة إلى من يقول له هذا ولكنها الذكرى التي تهز الفؤاد وتقود إلى مزيد من الإنجاز الذي يبني الجبهة الداخلية النظيفة، المتينة القديرة على مواصلة المهمة القتالية التي قادها نور الدين.. لقد أصدر أوامره إلى كافة موظفيه بالعمل على منع ارتكاب الفواحش وشرب الخمر، أو بيعها في جميع بلاده، أو إدخالها إلى بلد ما، وإسقاط كل ما يدخل تحت شبه الحرام وتصفية أثار الأثام، وإراقة الخمر، وإزالة كل ما يندّ الظلام، وكان ينزل عقابه السريع العادل بكل من خالف عن أمره وكل الناس عنده فيه سواء^(٦). لقد بلغ من التزام نور الدين بكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام حداً في غاية الروعة والجمال وشدّة المحبة لرسول الإسلام، فقد حكى الشيخ أبو البركات أنه حضر مع عمه الحافظ أبي القاسم مجلس نور الدين لسماع شيء من الحديث، فمرّ أثناء الحديث أن النبي ﷺ خرج متقلداً سيفاً، فاستفاد نور الدين أمراً لم يكن يعرفه وقال كان رسول الله ﷺ يتقلد السيف؛ يشير إلى التعجب من عادة الجند إذ هم على خلاف ذلك لأنهم يربطونه بأوساطهم فلما كان من الغد مر، وأنا تحت القلعة والناس مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان، فوقفنا ننظر إليه، فخرج من القلعة

(١) المصدر نفسه (٢٧٦/١).

(٢) المصدر نفسه (٢٧٦/١).

(٣) الكواكب ص ٢٥، ٣٢ - ٣٣ نور الدين محمود ص ٨٧.

(٤) مرآة الزمان (٢٤٧/٨) نور الدين محمود ص ٨٧.

(٥) زبدة حلب (٢١٥/٢) نور الدين محمود ص ٨٨.

(٦) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٨.

وهو متقلد السيف وجميع عسكره كذلك^(١). رحم الله الملك العادل نور الدين الذي لم يفرط في الاقتداء بالنبي ﷺ بمثل هذه الحالة، بل لما بلغته رجوع بنفسه ورد جنده عن عواندهم اتباعاً لما بلغه عن نبيه ﷺ، فما الظن بغير ذلك من السنن^(٢). وما أحسن ما قال فيه محمد بن نصر القيسراني:

ذو الجهادين من عدوّ :: فهو طول الحياة في هيجاء
أيها المالك الذي ألزم الناس :: سلوك المحجّة البيضاء
قد فضحت الملوّك بالعدل :: لما سرت في الناس سيرة الخلفاء
قاسماً ما ملكت في الناس حتى :: لقسمت التقى على الأتقياء^(٣)
وقال فيه ابن منير: ؟؟؟

عفى جهادك كل رسم مخوفة :: وعفت بصفوة عدلك الأكراد
ومحا المظالم منك نظرة راحم :: لله فلي خطراته أسرار
غضبان للإسلام مال عموده :: فلنوره مما عراه نوار
لم يبق ما كسى مسلم سلقاً ولا :: ساع لمظلمة ولا عشّار
همدوا كما همدت ثمود وقادهم :: لخسارهم مما أتوه قدار
العار في الدنيا شقوا بلباسه :: ولباسهم يوم الحساب النار
كم سيرة أحيتها عميرة^(٤) :: رفعت لها في الخافقين منار
ونوافل صيرتهن لوازماً :: بأقلها تستعيد الأحرار^(٥)
أما نهارك فهو ليل مجاهد :: والليل من طول القيام نهار^(٦)

ولقد تحققت في دولة نور الدين محمود آثار تحكيم شرع الله تعالى، من التمكين، والأمن والاستقرار، والنصر والفتح المبين والعز والشرف، وبركة العيش ورغد الحياة في عهده وانتشار الفضائل وانزواء الرذائل.. إلخ وسوف نتضح بإذن الله تعالى هذه الآثار في هذا الكتاب.

إن آثار تحكيم شرع الله في الشعوب التي نفذت أوامر الله ونواهيها ظاهرة بينة لدارس التاريخ، وإن تلك الآثار الطيبة قد رأيتها في دراستنا لدولة الخلفاء الراشدين، ودولة عمر بن عبد العزيز، ودولة نور الدين زنكي، ودولة يوسف بن تاشفين، ودولة محمد الفاتح وهي من سنن الله الجارية والماضية لا تتبدل ولا تتغير، فأى قيادة مسلمة تسعى لهذا المطلب الجليل والعمل العظيم مخصصة لله في قصدها، مستوعبة لسنن الله في الأرض، فإنها تصل إليه ولو بعد حين، وترى آثار ذلك التحكيم على أفرادها ومجتمعاتها ودولها وحكامها.

إن الغرض من الأبحاث التاريخية الإسلامية الاستفادة الجادة من أولئك الذين سبقونا بالإيمان في جهادهم وعلمهم وتربيتهم، وسعيهم الدؤوب لتحكيم شرع الله، وأخذهم بسنن الله وفقهه ومراعاة

(١) عيون الروضتين (١/٣٨٤، ٣٨٥).

(٢) الكواكب نقلاً عن نور الدين محمود ص ٨٩.

(٣) كتاب الروضتين (١/٢٨٥، ٢٨٦).

(٤) عميرة: قصد عمر بن الخطاب.

(٥) عيون الروضتين (١/٣٩٣).

(٦) عيون الروضتين (١/٣٩٣).

التدرج والمرحلية والارتقاء بالشعوب نحو الكمالات الإسلامية المنشودة، إن التوفيقات الربانية العظيمة في تاريخ أمتنا يجريها الله تعالى على يدي من أخلص لربه ودينه، وأقام شرعه وقصد رضاه وجعله فوق كل اعتبار (١). قال تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} (النساء: ٦٥).

قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا} (النور: ٥٥).

ثانياً: بناء دولة العقيدة على أصول أهل السنة:

كان نور الدين رجل عقيدة وكان أظهر ما في خصائصه هو إيمانه الإسلامي العميق قال عنه ابن كثير: ... كان مجاهداً في الفرنج، أمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، صحيح الاعتقاد وكان قد قمع المناكر وأهلها ورفع العلم والشرع وليست الدنيا عنده بشيء رحمه الله (٢) وكان رحمه الله يملك رؤية نهوض قائمة على إحياء السنة وقمع البدعة قال عنه ابن كثير: أظهر نور الدين ببلاده السنة وأمات البدعة وأمر بالتأذين بحي على الصلاة حي على الفلاح ولم يكن يؤذن بهما في دولتي أبيه وجده، وإنما كان يؤذن بحي على خير العمل، لأن شعار الرفض كان ظاهراً (٣)، وكان يعاقب المبتدعة بأشد العقوبات قيل: إن رجلاً أظهر شيئاً من التشبيبه، فأركب على حماره، وأمر بصفعه وطيف به في البلد ونفاه إلى حران (٤)، وكان نور الدين يتحرى السنة في أمورها كلها ومن أعظم إنجازات دولته هو إسقاط الدولة الفاطمية وكان الفضل لله ثم للحملات المتوالية التي أرسلها نور الدين محمود (٥) حتى خلص المسلمين من شرورها وأعلن تبعيتها للخلافة العباسية السنية وكان رأي نور الدين في الدولة العبيدية الفاطمية يتلخص في رسالته للخليفة العباسي، وهو يبشره بفتح مصر وسقوط دولة الإلحاد والرفض والبدعة (٦)، يقول فيها: وطالما بقيت (٢٨٠) سنة مملوءة بحزب الشياطين... حتى أذن الله لغمتها بالانفراج، واجتمع فيها داء الكفر والبدعة، وتمكنا من إزالة الإلحاد والرفض، ومن إقامة الفرض (٧)، وسيأتي الحديث عن أساليب ومنهج نور الدين في إزالة الدولة الفاطمية في مصر.

دور نور الدين في دعم المذهب السني:

مهدت مدارس نظام الملك رحمه الله السبيل وبسرته أمام نور الدين والأيوبيين، فأضحى

(١) الخليفة الراشد والمصلح الكبير عمر بن عبد العزيز ص ٣٥٧.

(٢) البداية والنهاية نقلاً عن الجهاد والتجديد ص ٣٣٠.

(٣) المصدر السابق ص ٣٣٠.

(٤) كتاب الروضتين (٢٤/١) الجهاد والتجديد ص ٣٣٠.

(٥) الجهاد والتجديد ص ٣٣١.

(٦) المصدر نفسه ص ٣٣١.

(٧) كتاب الروضتين نقلاً عن الجهاد والتجديد ص ٣٣١.

الطريق معبداً لتحقيق الهدف الذي أنشئت النظاميات من أجله وهو العمل على مناهضة الفكر الشيعي ودعم المذهب السني وقد عقد نور الدين العزم على صبغ دولته بالكتاب والسنة ومواجهة الفكر الشيعي الرافضي والذي كان محصوراً في حلب ودمشق ومصر وبذل جهوداً كبيرة ليتمكن لمذهب السنة إلا أن هذه الجهود كانت تختلف في طبيعتها باختلاف هذه البيئات الثلاث وإليك جهود نور الدين محمود في الأقاليم الثلاثة^(١).

١ - جهود نور الدين في حلب:

أخذ نفوذ الشيعة في حلب يظهر بوضوح في أواخر أيام سيف الدولة الحمداني (٣٣٣ - ٣٥٦هـ/٩٤٤ - ٩٦٧) لأن بني حمدان كانوا يعتقدون مذهب الشيعة الإمامية فيسروا لدعاة هذا المذهب الطريق لنشر الدعوة فيها ثم عملوا بعد ذلك على إزالة شعائر السنة وإحلال شعائر الشيعة محلها، وذلك عندما غير سعد الدولة أبو المعالي (٣٥٦ - ٣٨١هـ/٩٦٧ - ٩٩١م) ابن سيف الدولة الأذان بها في عام ٣٦٧هـ/٩٧٧م وزاد فيه حي على خير العمل محمد وعلي خير البشر^(٢)، فكان هذا مبدءاً ظهور الإمامية بحلب، وما زال نفوذهم يزداد نتيجة لتعاقب بعض الأسر الشيعية على حكمها: كآل مرداس والعقيليين حتى أصبح شعار الرفض بها ظاهراً^(٣). وإلى جانب الشيعة الإمامية وجدت قلة من الشيعة الإسماعيلية ازداد نفوذهم في حلب في عهد رضوان بن تنش الذي أمل أن ينصروه على أخيه دقاق، ويساعده في أخذ دمشق منه، ومن ثم بنى لهم بحلب أول دار للدعوة ودعا على منابرها للفاطميين فترة يسيرة من الزمن ومن هؤلاء وأولئك تكون مجتمع الشيعة في حلب ومعظم هؤلاء الشيعة كانوا متعصبين فقد كان المذهب الشيعي متغلغلاً في حلب^(٤)، فقام نور الدين محمود باتخاذ خطوات سياسية واكبتها في الوقت نفسه خطوات فكرية هامة: ففي رجب من عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م أي بعد عامين تقريباً من استقراره في حلب رأيناه يأمر الشيعة بترك حي على خير العمل في الأذان وينكر عليهم إنكاراً شديداً جهرهم بسب صحابة رسول الله p ويحذرهم من مغبة العود إلى ما نهوا عنه، فعظم هذا الأمر على الإسماعيلية، وأهل التشيع، وضافت له صدورهم وهاجوا وماجوا ثم سكنوا وأحجموا للخوف من السطوة النورية المشهورة، والهيبة المحذورة^(٥)، كما قام نور الدين بخطوة أخرى وهي: إبعاد بعض زعماء الشيعة عن حلب، ممن كان يخشى خطرهم، وكان على رأس المبعدين والد المؤرخ ابن أبي طي^(٦) وواكبت هذه الخطوة السياسية خطوة فكرية هامة: وهي إنشاء مدرستين سنيتين كبيرتين: إحداها للحنفية وهي المدرسة الحلاوية التي أنشأها نور الدين في العام ذاته ٥٤٣هـ/١١٤٨م وأسند التدريس فيها إلى برهان الدين أبي الحسن علي بن الحسن البلخي حيث استدعاه نور الدين من دمشق فجاء وألقى بها الدروس على الفقهاء

(١) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص ٢٠٦.

(٢) زبدة تاريخ حلب (١/١٧٢).

(٣) البداية والنهاية نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص ٢٠٧.

(٤) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص ٢٠٧.

(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/٢٠٢).

(٦) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٨٥.

وكان هو وتلاميذه خير عون لنور الدين في تنفيذ سياسته الرامية إلى مناهضة الشيعة ونصرة الكتاب والسنة، فيذكر بعض المؤرخين أن البلخي جلس تحت منارة المسجد وأمر بعض الفقهاء بالصعود إليها وقت الأذان وقال لهم: من لم يؤذن الأذان المشروع فألقوه من المنارة على رأسه، فأذّنوا الأذان المشروع^(١). وكان المدرسة الثانية التي أنشأها نور الدين في حلب هي المدرسة النُفَرِيَّة النورية، وقد أنشأها (سنة ٤٤٤هـ/١١٤٩م) لتدريس المذهب الشافعي وتولى التدريس بها قطب الدين مسعود بن محمد النيسابوري ت ٥٧٨هـ، ١١٨٢م أحد أساتذة نظامية نيسابور، وقد كان حضر إلى دمشق في عام ٥٤٠هـ/١١٤٥م وأقام بها يعظ ويعلم، فأقبل عليه الناس فاستدعاه نور الدين إلى حلب وأسند إليه التدريس بهذه المدرسة^(٢) ولم يكن اختيار النيسابوري لتولي الأستاذية بهذه المدرسة من قبيل المصادفة فالرجل له قدم راسخة في علوم السنة والمنطق وعلوم الكلام ويملك من القدرات العقلية والفكرية ما يمكنه من إنزال هزائم فادحة في مجال الفكر للعقيدة الشيعية الراضية وكان نور الدين بحاجة ماسة إلى العلماء الذين تخرجوا ودرسوا في المدارس النظامية، فبيئة حلب قد دخلت في طور التجديد لمنهج أهل السنة ومحاربة التشيع الباطني المتسلح بالفلسفة للدفاع عن عقيدته^(٣).

أ - الاهتمام بالمذهب الشافعي في حلب:

كان نور الدين محمود يتبع مذهب الإمام أبي حنيفة إلا أنه أنشأ للشافعية في حلب ثلاث مدارس هي: النُفَرِيَّة والعصرونية والشعبية وأسند الأولى إلى أستاذ من أساتذة النظاميات، والثانية إلى تلميذ من أتبع من خرجت نظامية بغداد وهو شرف الدين بن أبي عصرون، وفي الوقت الذي لم ينشئ فيه لأهل مذهبه إلا مدرسة واحدة وهي الحلاوية السالفة الذكر. لاعتقاده بأن علماء المدارس النظامية لهم القدرة على الإحياء السني، وقمع شبّهات المبتدعة من الشيعة الراضية أكثر من غيرهم وذلك بسبب خبرة المدارس النظامية وخريجيتها على مواجهة المد الباطني الشيعي وقدرتها على كشف باطلها بأسلوب علمي رصين إضافة إلى اهتمام المدارس النظامية بنشر العلم الشرعي والإحياء السني الكبير ولأن البيئة الحلبية تحتاج إلى ذلك النوع من علماء أهل السنة والذي يقوي هذا المذهب أن نور الدين لم يسلك سبيلاً مشابهاً لهذا المسلك في دمشق بعد أن استولى عليها، إذ كانت حفاوته بمدارس الحنفية أكثر، فأنشأ فيها أشهر مدارس وهى: النورية الكبرى، كما بنى للحنفية مدرسة أخرى بجامع القلعة عرفت بالنورية الصغرى وأما الشافعية فإنه أسس لهم مدرستين أو ثلاثاً على خلاف بين المؤرخين^(٤) ويبدو أن مدينة حلب كانت في حاجة ماسة إلى جهود أهل السنة من المذهب الشافعي المسلحين بدراسة الجدل وعلم الكلام ليواجهوا الشيعة مواجهة فكرية تشد من أزر المواجهة السياسية لذا رأينا نور الدين يكثر من بناء مدارس الشافعية لحلب ويستقدم لها نوعية

(١) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص ٢٠٩ نقلاً عن زبدة حلب.

(٢) كتاب الروضتين نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص ٢٠٩.

(٣) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص ٢٠٩.

(٤) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق ص ٢١٠.

خاصة من الأساتذة ليتولوا مهمة التدريس بها والإشراف عليها، وهذا ما لم يحفل به كثيراً في دمشق حيث النفوذ السني غالب، فصرف همته إلى العناية بفقهاء مذهبه، والاهتمام بدار الحديث الشريف التي أنشأها (١).

ب - الاستفادة من جهود علماء السنة:

لم تقف جهود نور الدين في حلب عند حد العناية بإنشاء المدارس الحنفية والشافعية، بل إنه كان حريصاً على أن يستفيد من جهود علماء السنة على اختلاف مذاهبهم في محاربة الفكر الشيعي، والتمكين لمذهب السنة ولذلك كان يعتني أيضاً بعلماء المالكية والحنابلة وفقهائهم، فأوقف زاويتين بالمسجد الجامع في حلب، وخصص إحداهما لفقهاء الحنابلة والأخرى للمالكية وبذلك نجح نور الدين في التخفيف من حدة الصراع المذهبي بين المذاهب السنية المختلفة (٢) وتوحيدها في جبهة واحدة ووقفه الله في توحيد جهود علماء السنة لمحاربة الفكر الشيعي (٣).

ج - دعم التصوف السني:

اهتم نور الدين بإنشاء خوانق الصوفية وكانت في ذلك العصر مكاناً للعبادة وقد أصبح التصوف السني في ذلك العصر اتجاهماً له نفوذه وسيطرته وتقديره على المستوى الرسمي والشعبي وسيأتي الحديث بإذن الله عن دور المدرسة القادرية في توعية عوام الأمة خصوصاً في عاصمة الخلافة وجهود الغزالي ومحاولته تنقية التصوف من كثير من الشوائب وأن يمزج بينه وبين الشريعة مزجاً تاماً، فقد كان الصوفية في ذلك العصر محل تقدير الحكام واحترامهم وخاصة نور الدين الذي كان يستفيد منهم في الدعاء وجمع المعلومات على الأعداء، وفي الجهاد، وكان يرحب بهم في بلاطه ويتواصل مع شيوخهم ويبيني لهم الخوانق في أنحاء مملكته، وكان نصيب حلب من جهوده في هذا المجال خوانق: اثنتان منها للرجال وواحدة (٤) للنساء واستطاعت الدولة النورية التأثير على التصوف السني، وساهم التصوف السني في محاربة الدولة الفاطمية ومدّ نفوذه في أنحاء بلاد الشام ومصر مع توسع الدولة النورية خارجياً والتي كانت من وسائلها دعم التصوف السني لمقاومة المذهب الإسماعيلي والتيار الفلسفي، وقد مدت مقاومتها إلى مصر أيضاً ولذا كان اتساع نطاق الاتجاه الصوفي على مستوى قطاعات جماهيرية كبيرة فيما بعد في عهد الأيوبيين والمماليك (٥).

د - دور تدريس الحديث:

اهتم نور الدين محمود بتدريس الحديث الشريف وكانت من ضمن مشروعه في حركة الإحياء السني ومناهضة الفكر الشيعي، ذلك أن الشيعة لا يعترفون بصحة الحديث إلا إذا كان مروياً عن آل البيت وكان من الطبيعي أن ينتهي بهم هذا الموقف - المجانب للحق والعدل والصواب - إلى الطعن

(١) المصدر نفسه ص ٢١١.

(٢) المصدر نفسه ص ٢١١.

(٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٨٧.

(٤) التاريخ السياسي والفكر للمذهب السني ص ٢١٢.

(٥) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ١٨٥.

في صحاح السنة ويضاف إلى ذلك أن العناية بالحديث الشريف وتشبيد معاهد دراسية خاصة به كان سمة من سمات هذه الفترة التي حكم فيها نور الدين والأيوبيون، ذلك أن الظروف التي أحاطت بالشام ومصر في تلك المرحلة عكست ظلالها على مناهج الدراسة في المعاهد العلمية السننية من أثر ذلك العناية بالحديث وعلومه استجابة لظرف واقعي تمثل في احتلال الصليبيين لأجزاء واسعة من بلاد الشام من بينها القدس الشريف، فكان على هذه المدارس أن تعبئ الناس للجهاد وتحيي فيهم روح البطولة والاستشهاد عن طريق تدريس الحديث والعناية به خاصة ما يتعلق منه بباب الجهاد في سبيل الله، ولذا رأينا نور الدين يوقف زاوية بجامع حلب على دراسة الحديث، كما أوقف داراً أخرى للغرض ذاته هذه هي أبرز الجهود التي نهض بها نور الدين لدعم المذهب السنني بها (١).

س - موقف الشيعة في حلب من حركة الإحياء السننية:

لم يتقبل الشيعة الجهود التي نهض بها نور الدين في حلب لدعم المذهب السنني بها وظلوا ينتهزون الفرصة المواتية ليعودوا بحلب مرة أخرى إلى ما كانت عليه بيئة شيعية يمارسون فيها شعائهم بحرية تامة وكانت محاولتهم الأولى في هذا السبيل عام ١١٥٢/١١٥٧م عندما مرض نور الدين بحلب حتى أرجف بموته ووصل أخوه نصر الدين إلى حلب ليخلفه في ولايته، فمنعه والي القلعة من الدخول إليها، فجمع حوله أحداث الشيعة وأبدوا استعدادهم لنصرته شريطة أن يسمح لهم بالعودة إلى ممارسة شعائهم التي أبطلها نور الدين، فوعدهم بذلك، واشتعلت نيران الفتنة بين السنة والشيعة وقام الأخيرون بنهب بعض المراكز التعليمية السننية كالمدرسة العسرونية وغيرها من دور أهل السنة، ولما علم نور الدين بالأمر أرسل إلى قاضي المدينة أبي الفضل هبة الله بن أبي جرادة بأن يمضي إلى الجامع ويصلي بالناس، ويعاد الأذان إلى ما كان عليه فشرع المؤذنون في الأذان السنني فاجتمع تحت المنارة من عوام الشيعة خلق كثير، فخرج إليهم القاضي وحذرهم وبين لهم أن نور الدين قد عوفي وأنه هو الذي أمر بهذا فانصرفوا وسكنت الفتنة (٢).

و - وجاءت محاولتهم الثانية في شوال من عام ١١٦٩/١١٦٤م :

عندما أحرق الإسماعيلية مسجد حلب الجامع وكان يتخذ مكانا للدرس إلى جانب العبادة، فكان فيه الكثير من الزوايا التي وقفها نور الدين على المالكية والحنابلة وعلماء الحديث، فأعاد نور الدين بناء الجامع ووسعه وخصص له أوقافاً كثيرة (٣)، ولعل الحركة من جانب الإسماعيلية في حلب كانت رد فعل لاستيلاء نور الدين على مصر الفاطمية في ربيع الآخر من هذا العام، إذ أيقن الإسماعيلية أن نور الدين ماض في تضيق الخناق على الشيعة وأنه عازم على استئصال هذا المذهب من مصر والشام (٤) كانت خطوات نور الدين العقائدية في حلب خطوات مدروسة تدل على وعي وإدراك كاملين للهدف الذي يريد تحقيقه من وراء إنشاء هذه المؤسسات السننية الهادفة، وظهر

(١) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السنني ص ٢١٢.

(٢) زبدة حلب (٣٠٨/٢ - ٣١٠) التاريخ السياسي والفكري ص ٢١٣.

(٣) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السنني ص ٢١٣.

(٤) المصدر نفسه ص ٢١٣.

هذا الوعي واضحاً من جانب نور الدين عندما تحدث مجد الدين ابن الداية بلسانه إلى الفقهاء في حلب قائلاً: نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم، ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين (١) كما كان نور الدين - رحمه الله - يدرك قيمة العلم سلاحاً يواجه به العدو كما يواجهه بالقوة العسكرية، ولا شك أن نور الدين في هذه النظرة كان يعيش في عصره بعقلية العصر الذي يعيشه الآن (٢)، فالتمسدي للغزو الباطني الحديث يحتاج لقوة عسكرية واقتصادية وسياسية، وفكرية وإعلامية تتوازن وتتعاون وتتكامل مع بعضها من أجل الإحياء السني في الأمة والوقوف أمام العقائد الباطنية الزاحقة.

وقد أثمرت جهود نور الدين في حلب وتسايق أمراؤه وأعيان دولته وخلفاؤه من بعده إلى إنشاء المؤسسات العلمية حتى غدت حلب بعد فترة يسيرة نسبياً مركزاً من مراكز الثقافة السنية بعد أن كانت وكراً من أوكار الشيعة وقد أحصى المؤرخ عز الدين شدادت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م مدارس حلب في أيامه فوجدها أربعاً وخمسين مدرسة موزعة بين المذاهب الفقهية الأربعة منها: إحدى وعشرون للشافعية، واثنان وعشرون للحنفية، وثلاث للمالكية والحنابلة، وثمانية دور للحديث الشريف بالإضافة إلى إحدى وثلاثين خانقاه للصوفية (٣) وقد أتت هذه المؤسسات العلمية ثمارها المرجوة إذ انقرض المذهب الإسماعيلي الباطني في حلب في حدود عام ٦٠٠هـ/١٢٠٣م وأخفى الشيعة الإمامية معتقداتهم حتى انتهى بهم الأمر إلى أن أخذوا يتنكرون وبأفعال السنة يتظاهرون ويذكر أحد المؤرخين المعاصرين من أبناء حلب: أن الشيعة انقرضوا من المدينة وتلاشوا بالمرّة، ولم يبق منهم غير عدة بيوت يقذفهم بعض الناس بالرفض والتشيع، مع أن ظاهرهم على كمال الاستقامة وموافقة السنة (٤) وذلك بفضل الله ثم جهود المصلح الكبير نور الدين وخلفائه الذين اقتدوا به في الإكثار من المدارس السنية وتعيين الأساتذة الأكفاء لها، والإنفاق عليها بسخاء حتى تراجع التشيع من هذه المدينة وأصبحت السيادة فيها لمذهب أهل السنة (٥) وهذا يدل على أهمية التربية الفكرية والثقافية في التمكين للإسلام الصحيح في نفوس الناس.

٢ - جهود نور الدين في الإحياء السني في دمشق:

استولى نور الدين على دمشق في صفر من عام ٥٤٩هـ/١١٥٤م ومن ثم واصل جهوده لتنفيذ خطته في دعم العقيدة السنية وكان منهجه في دعم المذهب السني في دمشق قد خضع لزيادة في أعبائه العسكرية حيث أصبح مجاوراً لمملكة بيت المقدس أكبر المراكز الصليبية قوة وأخطرها شأناً ولذا فإن المنهج الذي سلكه نور الدين في دعم المذهب السني قصد إلى مواجهة هذه الحالة من ناحية ومن ناحية أخرى لا بد أن تصبح دمشق بمثابة مركز إشعاع عقائدي تنطلق منه جهود علماء السنة للقضاء على المذاهب المنحرفة وتمهيد الطريق لسيطرة المذهب السني - الذي كان عليه رسول الله

(١) كتاب الروضتين نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص ٢١٣.

(٢) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص ٢١٣.

(٣) المصدر نفسه ص ٢١٤.

(٤) نهر الذهب في تاريخ حلب (١٩٣ - ١٩١/١) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص ٢١٤.

(٥) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص ٢١٤.

p وأصحابه - ولذلك رأينا خطة نور الدين في دمشق تسير في ثلاث اتجاهات رئيسية^(١):

الاتجاه الأول: تركز في العناية بإنشاء المدارس السنية وربط الصوفية، غير أن مدارسه في دمشق اهتمت بفهاء المذهبيين: الحنفي والشافعي، وكانت عناية نور الدين بمدارس الفريق الأول أكثر، استجابة لميل طبيعي إلى هذا المذهب الذي كان يعتنقه دون تعصب، فأنشأ المدرسة النورية الكبرى، وجعلها وقفاً على الحنفية وأول من درس بها شيخ الحنفية بدمشق: بهاء الدين بن عسكر المعروف بابن العقادة ت (١١٩٩/٥٩٦م) ووصف ابن حبير هذه المدرسة عندما زارها في عام ١١٩٩/٥٨٠م بأنها من أحسن مدارس الدنيا منظراً.. وهي قصر من القصور الأنيقة^(٢)، كما جعل لهم مدرسة أخرى بجوامع القلعة وهي المدرسة النورية الصغرى^(٣) وأما المدارس الشافعية التي نسب إنشاؤها إلى نور الدين فأراء مؤرخي المدارس متضاربة حولها، ومع عناية نور الدين بتشديد المدارس التي تعنى بتراث الإمامين العظميين فإنه لم يهمل أصحاب المذهبين الآخرين إهمالاً تاماً، بل وقف على زاوية المغاربة وهم مالكية بالجامع الأموي ما يعينهم على تحصيل العلم ويوفر لهم حياة كريمة^(٤)، وواصل نور الدين في دمشق سياسته التي اتبعها في حلب تجاه الصوفية فشيّد لهم - خانقاه - خارج المدينة وصفها ابن حبير بقوله: ومن أعظم ما شاهدناه لهم (الصوفية) موضع يعرف بالقصر، وهو صرح عظيم، مستقل في الهواء، في أعلاه مساكن لم ير أجمل إشراقاً منها^(٥)، كما عين لهم نور الدين من ينظر في أمر ربطهم وزواياهم، وأسند هذه المهمة إلى شيخ الشيوخ أبي الفتح عمر بن علي بن حمويه^(٦).

وأما الاتجاه الثاني: فكان منصباً على العناية بالحديث الشريف دراسة وتديساً، ومن ثم بنى أكبر دار للحديث في دمشق، ووكّل أمر مشيختها إلى أحد أعلام عصره، وهو الحافظ الكبير: تقي الدين أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله بن عساكر ت (١١٧٥/٥٧١م) وكان عمدة في الحديث والفقه وعلم الكلام، وصفه ابن خلكان بأنه: من أعيان الفقهاء والشافعية ولكن غلب عليه الحديث فاشتهر به^(٧) وهذه العلوم الثلاثة: أعني الحديث والفقه، وعلم الكلام، كانت تدخل من ضمن الثقافة السنية في تلك الفترة ولذلك قربه نور الدين منه وأدناه من مجلسه واستمع إليه وفوض إليه القيام بمهمة الإشراف والتدريس بدار الحديث النورية وعناية نور الدين بالحديث الشريف - على هذا النحو - تعبر عن إدراك تام لقيمة الدور الذي تؤديه العناية بهذا الجانب: من تهيئة الناس وإعدادهم للجهاد في سبيل الله وحثهم عليه في بيئة تواجه باستمرار خطر العدو الذي يحتل مقدسات المسلمين ويتربص بهم الدوائر، كما أن هذه الحفاوة بالحديث الشريف تعكس لنا ميل نور الدين إلى هذا الفرع

(١) المصدر نفسه ص ٢١٥.

(٢) رحلة ابن حبير ص ٢٣١.

(٣) الدارس في تاريخ المدارس (١/٦٤٨).

(٤) رحلة ابن حبير ص ٢٣١ - ٢٢٢ التاريخ السياسي والفكري ص ٢١٦.

(٥) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص ٢١٦.

(٦) مرة الزمان (٢٧٢/٨) التاريخ السياسي والفكري ص ٢١٦.

(٧) وفيات الأعيان (٢/٤٧١ - ٤٧٣).

من فروع الثقافة السنية؟ فقد شارك العلماء في هذا الميدان فحدث بطلب ودمشق عن جماعة من العلماء أجازوا له رواية الحديث منهم: أبو عبد الله بن رفاعة بن غدير السعدي المصري^(١).

الاتجاه الثالث: كان موجهاً إلى العناية بتربية النشء تربية سنية فإن نور الدين بنى في دمشق وغيرها من البلاد مكاتب للأيتام وأجرى عليهم وعلى معلمهم النفقات الوفيرة، كما خصص للأيتام الذين يقرأون القرآن - بالمساجد التي شيدها - أوقافاً - معلومة^(٢) يذكر ابن كثير: أن نور الدين وقف وفقاً: على من يعلم الأيتام الخط والقراءة، وجعل لهم نفقة وكسوة^(٣). وخصص نور الدين لهذه المؤسسات التعليمية - على اختلاف أنواعها - الأوقاف الكثيرة التي تمكن طلابها وأساتذتها من التفرغ لتعلم العلم وتعليمه حتى إن ابن الأثير ذكر أنه بلغه من خبير بأعمال الشام أن وقوف نور الدين كانت تغل في عام ٦٠٨هـ/١٢١١م تسعة آلاف دينار كل شهر^(٤)، لذلك لن نعجب إذا وجدنا من يصف بلاد الشام بأنها كانت قبل نور الدين خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية لصرف همته إلى بناء المدارس والربط وترتيب أمورهم^(٥) ويصور أحد الشعراء المعاصرين لنور الدين وهو علي بن منصور أبو الحسن السروجي ٥٧٢هـ/١١٧٦م النهضة الفكرية في عهده بقوله في وصف دمشق:

كأنها جنة الخلد داني	:::	قصورها فتححت منها المقاصير
في كل قطر بها للعلم مدرسة	:::	جامع جامع للدين معمور
يتلى القرآن به في كل ناحية	:::	والعلم يذكر فيه والتفاسير
تكامل الحسن فيه مثل ما كملت	:::	أوصاف مولى بنشر العدل مشهور
الملك والدين والدين بأجمعها	:::	ولللخليفة من أنواره سور ^(٦)

٣ - دور نور الدين في إعادة مصر إلى المعسكر السني:

لم يقدر لنور الدين أن يحكم مصر حكماً مباشراً، ومن ثم لم تنتهياً له الفرصة ليقيم فيها مؤسسات فكرية تعمل على تغيير الاتجاه الشيعي في هذا الإقليم - وتنتشله من مستنقع البدع والضلال - وتعيده إلى رحاب السنة مرة أخرى، فالمؤسسات العقائدية السنية التي قامت في مصر حسبت كلها في رصيد الأيوبيين، حتى ما أنشئ منها في حياة نور الدين وكان له فيها أثر غير مباشر، ذلك أن الأيوبيين قدر لهم أن يستمروا في قيادة الإحياء السني في مصر بعد وفاته، فنسبت معظم الجهود - إن لم يكن كلها - إليهم. ولكننا مع هذا لا يسعنا إلا أن نقرر الحقيقة وهي أن الأيوبيين كانوا تلاميذ نور الدين في هذا الاتجاه، فما ينسب إليهم لا بد أن نلمس فيه أثره، ونلمح فيه توجيهاته، وذلك علاوة على الدور الكبير الذي قام به في إعادة مصر إلى المعسكر السني، والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو:

(١) الباهر ص ١٦٥، كتاب الروضتين نقلاً عن التاريخ السياسي ص ٢١٧.

(٢) الباهر ص ١٧٢ التاريخ السياسي والفكري ص ٢١٧.

(٣) البداية والنهاية نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص ٢١٧.

(٤) الباهر ص ١٧٢ التاريخ السياسي والفكري ص ٢١٨.

(٥) كتاب الروضتين نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص ٢١٨.

(٦) التاريخ السياسي والفكري ص ٢١٨.

في أي الجوانب إذن تركز دور نور الدين في تحويل مصر إلى هذه الوجهة (١)؟ يذكر المقرئزي: أن الخليفة لأمر الله العباسي انتهز فرصة الاضطرابات في مصر عقب مقتل الخليفة (الظافر) في المحرم سنة ١٥٤٩هـ/١١٥٤م وتولية ابنه: (الفائز) وكان طفلاً صغيراً، فأرسل إلى نور الدين يطلب منه أن ينتهز هذه الفرصة ويزحف على الساحل الشامي ومصر ويأخذها من أيدي الفاطميين وكتب له بهما عهداً. كما ذكر هذه الرواية بشيء من التفصيل السيوطي في حسن المحاضرة (٢)، ويفهم من الروايتين أن الخليفة المقتفي هو الذي وجه نظر نور الدين إلى مصر وأنه شجعه على ذلك وأن توجيه الخليفة كان نقطة البداية في محاولة استعادة مصر إلى المعسكر السني (٣). ولا نستطيع أن ننكر الجهود الكبيرة التي قام بها الخليفة المقتفي ووزيره يحيى بن هبيرة في دعم مسيرة نور الدين إلا أن الاهتمام بمصر بالنسبة لنور الدين اختيار إستراتيجي في خطته لتضييق الخناق على الصليبيين في بيت المقدس، كما أدرك من قبل أهمية ضم دمشق بالنسبة لهذا الأمر الحيوي وهذه الحقيقة عبر عنها نور الدين بنفسه في إحدى عباراته عندما أرسل إليه صلاح الدين - من مصر - هدايا وتحفا فقال: والله ما قصدنا بفتح مصر إلا تطهير الساحل وقلع الكفار منه (٤) وكلمة تطهير الساحل لعلمه أهمية الهيمنة البحرية للمعسكر السني لكي يظهر البيت المقدس وبلاد الشام من الصليبيين، فحركة الإمدادات من غرب أوروبا، تحتاج لحشد قوى العالم الإسلامي، مع قطع الإمدادات أو مضايقتها عن الصليبيين في بلاد الشام، وهذا لا يكون إلا بضم مصر وتخليصها من أيدي الروافض الباطنيين الذين تقلدوا أمور حكمها من قرون كما أن نور الدين محمود زنكي رجل تركي سني، وهو على أي حال امتداد للسلاجقة الذين تمنوا فتح مصر وإعادتها إلى دائرة النفوذ السني، لذا كان من الطبيعي أن يأتي تفكيره في فتح مصر نابغاً من ذاته وتمشياً مع متطلبات ظروفه العسكرية من ناحية، ومحققاً لأمانيه الدينية من ناحية أخرى ومما يشير إلى أن فتح مصر كان هدفاً من أهداف نور الدين التي سعى لتحقيقها قوله في الرسالة التي بعث بها إلى الخليفة المستضيء يبشره بإقامة الخطبة له في مصر: ما برحت هممنا إلى مصر مصروفة وعلى افتتاحها موقوفة، وعزائمنا في إقامة الدعوة الهادية بها ماضية... حتى ظفرنا بها بعد بأس الملوك منها (٥)، كما كشف في هذه الرسالة عن موقفه العقدي من الفاطميين بقوله عن مصر:.... وبقيت مائتين وثمانين سنة ممنوعة بدعوة المبطلين مملوءة بحزب الشياطين حتى أذن الله لغمتها بالانفراج، وأقدمنا على ما كنا نؤمله من إزالة الإلحاد والرفض، وتقدمنا إلى من استبناه أن يستفتح باب السعادة، ويقوم الدعوة العباسية هنالك ويورد الأدعياء ودعاة الإلحاد بها المهالك (٦).

ولهذا كله كان من الطبيعي أن ينتهز نور الدين الفرصة التي سنحت له للتدخل في شؤون

(١) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص ٢١٨.

(٢) حسن المحاضرة (٣/٢) اتعاط الحنفا (٢٢٣/٣).

(٣) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص ٢١٩.

(٤) مرآة الزمان نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص ٢١٩.

(٥) كتاب الروضتين نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص ٢٢٠.

(٦) المصدر نفسه ص ٢٢٠.

مصر عندما اضطربت أحوالها الداخلية بسبب التنافس بين الوزراء، وطمع الصليبيين فيها، فتأبر على إرسال جيشه إليها كلما دعت الضرورة إلى ذلك حتى تم الاستقرار لهذا الجيش بها في المرة الثالثة وذلك في ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م ووزر قائده أسد الدين شيركوه للخليفة العاضد في مصر، لكنه ما لبث أن توفي وخلفه في منصبه ابن أخيه صلاح الدين الذي كان عليه أن يبدأ بتنفيذ خطة نور الدين لإعادة مصر إلى حظيرة السنة، ثم يتابع المسيرة بعد وفاة أستاذه العظيم^(١).

خطة نور الدين في بداية فتح مصر:

كانت خطة نور الدين في بداية فتح مصر تركز على أمرين هاميين:

الأول: تغيير النظام القضائي بها بحيث يعتمد على مذهب السنة بدلاً من المذهب الشيعي الإسماعيلي الباطني، وحاول نور الدين أن يكل هذا الأمر إلى الفقيه الشافعي شرف الدين بن أبي عسرون، يذكر أبو شامة أنه وقف على كتاب بخط نور الدين إلى هذا الفقيه - وكان يحلب يطلب منه الذهاب إلى مصر ليتولى قضاءها ومما قاله نور الدين للشيخ: أنت تعلم أن مصر اليوم قد لزمتنا النظر فيها، فهي من الفتوحات الكبار التي جعلها الله دار إسلام بعد أن كانت دار كفر ونفاق.. إلا أن المقدم على كل شيء أمور الدين التي هي الأصل، وبها النجاة، وأنت تعلم أن مصر ما هي قليلة، وهي خالية من أمور الشرع.. والآن قد تعين عليك وعلي أيضاً أن ننظر إلى مصالحها، وما لنا أحد اليوم لها إلا أنت.. فيجب أن تشمر عن ساق الاجتهاد، وتتولى قضاءها، وتعمل ما تعلم أنه يقربك من الله^(٢).

والأمر الثاني: كان يتعلق بإقامة الخطبة العباسية في مصر فما إن استقرت عساكر نور الدين فيها حتى وردت عليه رسالة من الخليفة المستنجد يتعجل إقامة الخطبة له في مصر، ثم لما ولي (المستضيء) في عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م كرر هذا الطلب، وكان نور الدين بدوره يطلب من صلاح الدين الإسراع في تنفيذ هذه الخطوة. لكن صلاح الدين كان يؤثر اتخاذ خطوات متدرجة حتى لا يواجه بما لا تحمد عقباه إلى أن ألزمه نور الدين بذلك إلزاماً لا فسحة فيه في رسالة أرسلها إليه مع والده نجم الدين أيوب، فاعتذر لأبيه بأن هذا الأمر إن لم يؤخذ بالتدرج فسيؤول أمره إلى الفساد وفعلاً كان صلاح الدين يسير نحو رغبة نور الدين بخطوات متأنية، استطاع بعدها أن يقطع خطبة العاضد الفاطمي، ويخطب للخليفة العباسي في المحرم من عام ٥٦٧هـ/١١٧١م وما لبث العاضد أن توفي بعد أيام من الدعاء للعباسيين على منابر مصر وبموته سقطت الدولة الفاطمية^(٣)، وأرسل نور الدين القاضي ابن أبي عسرون إلى الخليفة العباسي يحمل رسالة تتضمن البشارة بهذا الحادث الكبير، وأمره نور الدين أن يقرأ البشارة في كل مدينة يمر بها، فلم يترك مدينة في الطريق إلى بغداد إلا دخلها، وقرأ فيها هذه البشارة، حتى وصل إلى عاصمة الخلافة، فخرج الموكب لتلقيه، ونثرت

(١) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص ٢٢٠.

(٢) كتاب الروضتين نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص ٢٢٠.

(٣) التاريخ السياسي والفكري ص ٢٢١.

عليه الدنانير، وحمل معه عند عودته التشريفات والخلع من الخليفة إلى نور الدين وصلاح الدين^(١) وبذلك قدر لمصر أن تعود إلى رحاب السنة في عهد نور الدين الذي تركزت جهوده في هذا المجال حول ثلاثة جوانب: الفتح العسكري الذي مهد الطريق أمام التحول السني، وتغيير النظام القضائي من المذهب الإسماعيلي الشيعي إلى المذهب الشافعي السني، ثم إسقاط الخلافة الفاطمية وإقامة الخطبة للخلافة العباسية السنية^(٢). وإذا كانت معظم جهود نور الدين الفكرية قد وزعت بين حلب ودمشق ومصر فإن هذا لا يعني إهمال بقية المناطق الخاضعة لنفوذه، بل إنه أنشأ المدارس السنية في كثير منها، وشيد عدداً كبيراً من المساجد التي كانت مهياً للعبادة والدرس، فبنى للفقيه ابن أبي عصرون مدارس في حلب وحمص وبعليك^(٣)، ويقول ابن خلكان عن نور الدين: إنه بنى المدارس بجميع بلاد الشام مثل: دمشق وحلب، وحمص، وبعليك، ومنيح والرحبة، وبنى بمدينة الموصل الجامع النوري، ورتب له ما يكفي، كما بنى جامع حماة وجامع الرها، وجامع منبج^(٤).

٤ - عوامل نجاح نور الدين في تحقيق برنامجه الإصلاحية:

إن جهوده جاءت تالية لجهود المدارس النظامية، فانتفع بما حققته من نتائج وفي مقدمتها تخريج جيل يحمل على عاتقه مهمة الدعوة للمذهب السني، والانتصار له. وقد استفاد نور الدين من عدد كبير تخرجوا من النظاميات يأتي الحديث عنهم لاحقاً بإذن الله تعالى واستطاع نور الدين أن يستغل بذكاء مواهب العلماء البارزين في عصره ويستعين بهم في دعم المذهب السني وكانت شخصيته من أهم العوامل التي ساعدته على النجاح في المهمة التي سعى لتحقيقها، فمن أبرز صفاته أنه كان يثق بالعلماء ثقة مطلقة ولا يسمح لأحد أن يتناول واحداً منهم بمقالة سوء، فازدادت منزلة العلماء سموا وأصبحوا محل ثقة جمهور المسلمين وتقديرهم كما كان يحرص على حضور مجلس العلم كلما سمحت له ظروفه بهذا ويواظب على عقد مجالس الوعظ، ويستمع - مع الناس - للحافظ ابن عساكر ولقطب الدين النيسابوري، وغيرهما من الوافدين على دمشق من أنحاء العالم الإسلامي^(٥)، كان نور الدين كقائد سياسي وعسكري على قناعة راسخة بالخطورة العظيمة التي يمثلها المد الشيعي الرفض في سبيل نهوض الأمة والاستمرار في مقاومة الصليبيين ولذلك جعل من أهدافه القضاء على الدولة الفاطمية التي ترى الفكر الشيعي الرفض والعمل على التصدي لدعاة التشيع الرفض بالفكر، والعلم والثقافة والسياسة والقوة. وقد تحدثنا عن شخصية نور الدين وأهم صفاته في مبحث مستقل، فقد كان سلوك نور الدين محمود زكي من عوامل انتصار المذهب السني، لأن أبرز ما كان يتبجح به الشيعة في الدعوة إلى مذهبهم هو التنديد بمسلك حكام السنة المنغمسين في ترفهم، اللاهين في ملاذهم وشهواتهم، الغارقين في مظالمهم، وكانت النعمة السائدة لدى دعائهم: أن الإمام المهدي (القائم أو الغائب) سيملاً الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، يستدرجون بهذا المحرومين والمسحوقين

(١) التاريخ السياسي والفكري ص ٢٢١.

(٢) كتاب الروضتين نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص ٢٢١.

(٣) الدارس في تاريخ المدارس (٤٠/١).

(٤) وفيات الأعيان (٢٧٢/٤).

(٥) كتاب الروضتين نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص ٢٢٤.

حتى يجذبونهم إلى صفوفهم، ويدخلونهم في دعوتهم، فجاء نور الدين يدعم المذهب السني بأخلاقه وسلوكه، وحسن سياسته في رعيته، ثم بجهوده الفكرية الرائعة^(١). إن نور الدين محمود أيقن بأن العقيدة التي تصلح لجمع شتات المسلمين هي ما كان منبعها كتاب الله وسنة رسوله ويمكن التذليل على كل أصل من أصولها أو جزئية من جزئياتها ثم إن السلف الصالح الذين استقاموا على عقيدة الإسلام الحق دونوا هذه العقيدة تدويناً ميزها عن عقائد أهل الفرق والضلال، فلذلك عمل على معرفتها وتعليمها وتربية الناس عليها من خلال جهاز العلماء في الدولة، فالطريق للنهوض لا بد فيه من وحدة الصف ووحدة الصف ليس لها من سبيل إلا الإسلام الصحيح والإسلام الصحيح مصدره القرآن والسنة، والطريق لفهم القرآن والسنة هي طريق رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، والتابعين بإحسان، ومن سار على نهجهم وطريقتهم إلى يوم الدين.

قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (التوبة: ١٠٠) فوعد من اتبع غير سبيلهم بعذاب جهنم، ووعد متبعهم بالجنة والرضوان^(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته»^(٣). وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: اتبعوا ولا تبتدعوا، فقد كفيتم^(٤) وعنه رضي الله عنه: من كان متأسياً فليتأس بأصحاب رسول الله، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً وأحسنها حالاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم^(٥). ولذلك حرص الملك العادل على بناء دولة العقيدة على أصول منهج أهل السنة والجماعة.

ثالثاً: العدل في دولة نور الدين محمود زنكي:

إن من أهداف الحكم الإسلامي الحرص على إقامة قواعد النظام الإسلامي التي تساهم في إقامة المجتمع المسلم ومن أهم هذه القواعد العدل قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النحل: ٩٠). وأمر الله بفعل كما هو معلوم يقتضي وجوبه وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النساء، آية: ٥٨).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: ١٣٥).

وقال رسول الله ﷺ: «أشد الناس يوم القيامة عذاباً إمام جائر»^(٦) والعدل أساس الحكم^(١)،

(١) التاريخ السياسي والفكري للمذهب النسي ص ٢٢٥.

(٢) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم ص ٢٦٣، ٢٦٤.

(٣) مسلم، كتاب الصحابة رقم ٢٥٣٣.

(٤) رواه مالك الموطأ رقم ١٦١٩.

(٥) حلية الأولياء (٣٧٩/١).

(٦) الجامع الصغير للسيوطي رقم الحديث ١٠٥٠ حديث حسن.

وإقامته بين الناس في الدين الإسلامي تعدُّ من أقدس الواجبات، وأهمَّها، وقد اجتمعت الأمة على وجوب العدل^(١)، ولقد كان نور الدين محمود زنكي قدوة في عدله، أسر القلوب، وبهر العقول، فقد كانت سياسته تقوم على العدل الشامل بين الناس وقد نجح في ذلك على صعيد الواقع والتطبيق نجاحاً منقطع النظير، حتى اقترن اسمه بالعدل وسمي بالملك العادل، وكان من أسباب نصر الله لهذا الملك العادل على الباطنية، والصليبيين إقامته للعدل في الرعية وإيصال الحقوق إلى أهلها، فالعدل في الرعية وإنصاف المظلوم يبعث في الأمة العزة والكرامة ويولد جيلاً محارباً وأمة تحررت إرادتها بدفع الظلم عنها، رعية تحب حكامها وتطيعهم، لأنهم أقاموا العدل على أنفسهم وأقاموا العدل على غيرهم وأما الظلم فهو ظلمات في الدنيا والآخرة وهو يؤذن بزوال الدول وقد حرم الله الظلم على نفسه فقد قال في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»^(٢). وقال تعالى: {اخْشُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} (الصافات: ٢٢) وقال تعالى: {فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا} (النمل: ٥٢) وقد سجل التاريخ بأن نور الدين محمود ساد العدل في دولته^(٣) وتم إيصال حقوق الناس إليهم فنشطوا في الجهاد والدفاع عن دينهم وعقيدتهم، وأوطانهم وأعراضهم ومن أبرز أعماله الإصلاحية والتجديدية إقامته للعدل في دولته^(٤) وقد أولى نور الدين المؤسسة القضائية اهتماماً كبيراً وجعلها في قمة أجهزته الإدارية، وخول القضاة على اختلاف درجاتهم في سلم المناصب القضائية صلاحيات واسعة، إن لم نقل مطلقة ومنحهم استقلالاً تاماً، لكونهم الأداة التنفيذية لإقرار مبادئ الحق والعدل، وتحويل قيم الشريعة ومبادئها إلى واقع ملتزم وتوجت جهودها بإنشاء دار العدل التي كانت بمثابة محكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفين وإرغامهم على سلوك المحجة البيضاء أو طردهم واستبدالهم بغيرهم إن اقتضى الأمر^(٥). وكان شعاره ما أكده لأصحابه مراراً: حرام على كل من صحبني ولا يرفع إلى قصة مظلوم لا يستطيع الوصول إليّ^(٦). ويحكي خادمه شاذبخت الطواشي الهندي - الذي كان أحد نوابه في حلب - هذه الحادثة ذات الدلالة الواضحة في هذا المجال: كنت يوماً أنا ورجل واقفين على رأس نور الدين وقد صلى المغرب وجلس وهو مفكر فكيراً عظيماً وجعل ينكش بأصبعه الأرض، فعجبنا من فكره وقلنا: في أي شيء يفكر؟ في عائلته أو في وفاء دينه؟ وكأنه فطن بنا فرفع رأسه وقال: ما تقولان؟ فأجبناه بعد تردد فقال: والله إني أفكر في والٍٍ وليته أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني وأخاف المطالبة بذلك من الله (أمام الله): فبالله عليكم.. وإلا فخبزي عليكم حرام - لا تريان قصة مظلوم لا ترفع إليّ، أو تعلمان مظلمة، إلا وأعلماني بها وارفعها إلي^(٧) وقد وصف ابن الأثير نور

(١) معوقات الجهاد في العصر الحاضر (٤٨١/١).

(٢) فقه التمكن في القرآن الكريم للصَّلَبي ص ٤٥٥.

(٣) مختصر صحيح مسلم للمنذري رقم ١٨٢٨.

(٤) دروس وتأملات في الحروب الصليبية ص ٢٠٥.

(٥) أيعيد التاريخ نفسه ص ٩٨.

(٦) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٧٥.

(٧) الكواكب ابن قاضي شهبه ص ٢٥ نور الدين محمود ٧٥.

(٨) الكواكب ص ٢٥ نور الدين محمود الرجل التجربة ص ٧٥.

الدين بأنه: كان يتحرى العدل وينصف المظلوم من الظالم كائناً من كان القوي والضعيف عنده في الحق سواء، فكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف ذلك بنفسه، ولا يكل ذلك إلى حاجب ولا أمير، فلا جرم أن سار ذكره في شرق الأرض وغربها^(١).

١ - دار العدل أو المحكمة العليا:

كانت قمة إجراءاته القضائية إنشاء داراً في دمشق لكشف المظالم سماها (دار العدل) وكانت أشبه بمحكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفين ثم عممت صلاحياتها فامتدت أفضيتها إلى سائر أبناء الأمة وقد جاء إنشاؤها بسبب تزايد عدد من كبار الأمراء في دمشق، وبخاصة أسد الدين شيركوه وتماديهم في اقتناء الأملاك، وتجاوز بعضهم حقوق البعض الآخر، فكثرت الشكوى إلى قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري فأنصف بعضهم من بعض لكنه لم يقدم على الإنصاف من شيركوه، فأنهى الحال إلى نور الدين، فأصدر أمره حينئذ ببناء دار العدل^(٢). يقول ابن الأثير: فلما سمع شيركوه ذلك أحضر نوابه جميعهم وقال لهم: اعلموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي، وإلا فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين؟ والله لئن حضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبته فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوا الحال معه وأرضوه بأي شيء أمكن ولو أتى على جميع ما بيدي فقالوا له: إن الناس إذ علموا هذا اشتطوا في الطلب. فقال: خروج أملاكي من يدي أسهل عندي من أن يراني نور الدين بعين أني ظالم، أو يساوي بيني وبين آحاد العامة في الحكومة (أي القضاء)؛ فخرج أصحابه من عنده وفعّلوا ما أمرهم، وأرضوا خصماءهم وأشهدوا عليهم، فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين، فعرفه الحال فقال: الحمد لله إذ أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا^(٣). وثبت لنور الدين أهمية هذه الدار فعممها في غير دمشق^(٤)، وكان نور الدين يجلس في دار العدل مرتين في الأسبوع، وقيل: أربع مرات أو خمس للنظر في أمور الرعية وكشف ظلاماتهم: لا يطلب بذلك درهما ولا ديناراً ولا زيادة ترجع إلى خزانته، وإنما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله^(٥). وكان يحضر معه قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري وكبار العلماء والفقهاء من سائر المذاهب لاعتمادهم كمجلس استشاري لاتخاذ القرارات النهائية ويأمر بإزالة الحاجب والبواب حتى يصل إليه الضعيف والقوى والفقير والغني، ويكلمهم بأحسن الكلام ويستفهم منهم بأبلغ النظام حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال ولا القوي في دفع الضعيف بالمقال ويحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها والمكالمة معه فتغلب خصمها طمعاً في عدله ويعجز الخصم عن دفعها خوفاً من عدله، فيظهر الحق عنده فيجري الله على لسانه ما هو موافق للشرعية، ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة فلا يجري في مجلسه إلا محض

(١) الباهر ص ١٦٦.

(٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٧٦.

(٣) الباهر ص ١٦٨ نور الدين محمود الشهيد ص ٧٦.

(٤) راند نصر المسلمين على الصليبيين نور الدين محمود ص ٣٢٦.

(٥) كتاب الروضتين (١/٦٢).

الشريعة^(١). ولم يميز نور الدين في دار العدل هذه بين أبناء رعيته على أي دين كانوا، فكان كما يقول ابن الأثير: ينصف المظلوم ولو أنه يهودي من الظالم ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده^(٢)، وكان قبل إنشائه هذه الدار يجلس كل يوم ثلاثاء في المسجد المعلق بدمشق: ليصل إليه كل أحد من المسلمين وأهل الذمة حتى نسائهم^(٣)، الأمر الذي يفسر لنا ما أورده الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي من تواجد العدد الكبير من اليهود في دمشق وحلب حيث بلغ في الأولى نحو ثلاثة آلاف^(٤) وفي الثانية ألفاً وخمسمائة^(٥)، وأما النصارى المتواجدون في دولة نور الدين فإنهم لم يمسا بأذى - رغم ظروف الصراع الإسلامي الصليبي - وعوملوا كمواطنين لهم حق الرعاية الكاملة ولم يعرف عنه^(٦) أنه هدم في حياته كنيسة ولا أذى قساً أو راهباً وقد كان الصليبيون إذا دخلوا بلداً قتلوا جلة أهله المسلمين ولو أنه تأثر بذلك وعاملهم بالمثل لقام له في ذلك عذر، ولكنه كان إنساناً عظيماً لا يقيس نفسه بأولئك الجفاة الذين أسأؤوا حتى إلى نصارى البلاد، فظلت الكنائس في بلاده عامرة بأهلها، بل إن الصليبيين كانوا إذا خرجوا في بلد تنفس نصاراه الصعداء وآمنوا إلى عدله وإنصافه^(٧).

٢ - استجابته للقضاء:

طلب مرة من قبل أحد المدعين فما كان من أحد كبار موظفيه إلا أن دخل عليه ضاحكاً وقال مستهزئاً: يقوم المولى إلى مجلس الحكم، فأنكر نور الدين على الرجل سخريته وقال: تستهزئ بطلبي إلى مجلس الحكم؟ وأردف: يُحضر فرسي حتى نركب إليه: السمع والطاعة؛ قال الله تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} (النور، آية: ٥١). ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة واستدعى أحد أصحابه وقال له: امض إلى القاضي وسلم عليه وقل له: أني جئت هاهنا امتثالاً لأمر الشرع^(٨). ويوماً كان يلعب الكرة - هوايته المفضلة - في دمشق، فرأى رجلاً من أتباعه يحدث آخر ويومئ بيده إليه، فأرسل إليه يسأله عن حاله، فأعلمه أن له مع نور الدين خصومة حول بعض الأملاك، وطلب حضوره إلى مجلس القضاء للفصل في المسألة، فتردد الغلام في عرض الموضوع على نور الدين، ولكن هذا ألح عليه، فلما تبين له الأمر ألقى العصا من يده وخرج من الميدان وسار إلى القاضي كمال الدين وقال له: إنني قد جئت محاكماً فاسلك معي ما تسلكه مع غيري، فلما حضر المدعي ساوى كمال الدين بينه وبين خصمه واذ لم يثبت ضده شيء قال للقاضي ولكافة الحضور: هل ثبت له عندي حق؟ قالوا: لا فقال: اشهدوا أنني قد

(١) المصدر نفسه (٦٢/١).

(٢) الكامل في التاريخ نقلاً عن نور الدين محمود ص ٧٧.

(٣) الكواكب ص ٢٥ نور الدين محمود ص ٧٧.

(٤) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٧٧.

(٥) المصدر نفسه ص ٧٨.

(٦) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٧٨.

(٧) نور الدين محمود حسين مؤنس ص ٣٦٧، ٣٦٨.

(٨) الباهر ص ١٦٦ - ١٦٧.

وهبت له هذا المال الذي حاكمني عليه وقد كنت أعلم أنه لا حق له عندي وإنما حضرت لئلا يظن أنني ظلمته، فحيثما ظهر أن الحق لي وهبته إياه^(١). تلك غاية العدل والإنصاف بل غاية الإحسان وهي درجة وراء العدل فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة المتقادة إلى الحق الواقفة معه كما علق ابن الأثير^(٢) وفي عام ٥٥٨ هـ - ١١٦٢ م ادعى رجل على نور الدين أن أباه (زنكي) أخذ من ماله شيئاً بغير حق وأنه يطالب بذلك. فقال نور الدين: أنا لا أعلم شيئاً عن ذلك فإن كان لك بينة تشهد بذلك فهاتها وأنا أرد إليك ما يخصني، فإني ما ورثت جميع ماله فقد كان هناك ورثة غيري، فمضى الرجل ليحضر البينة^(٣).

٣ - لا عقوبة على الظنة والتهمة:

لم يكن نور الدين يصدر العقوبة على الظنة والتهمة بل يطلب الشهود على المتهم، فإن قامت عليه البينة الشرعية عاقبه العقوبة العادلة من غير تعد^(٤)، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة والأخذ بالظنة وأمنت بلاده مع سعتها، وقل المفسدون ببركة العدل واتباع الشرع المطهر^(٥).

٤ - من عدله بعد موته:

ومن عدله أيضاً بعد موته وهو من أعجب ما يحكى: أن إنساناً كان بدمشق استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين رحمه الله، فلما توفي تعدّي بعض الأجناد على هذا الرجل فشكاه، فلم يُنصف، فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شق ثوبه وهو يقول: يا نور الدين لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا، أين عدلك؟ وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق ما لا يحصى وكلهم يبكي ويصيح فوصل الخبر إلى صلاح الدين وقيل له: احفظ البلد والرعية وإلا خرج عن يدك، فأرسل إلى ذلك - وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه - فطيب قلبه ووهبه شيئاً وأنصفه، فبكى أشد من الأول فقال له صلاح الدين: لم تبكي؟ قال: أبكي على سلطان عدل فينا بعد موته، فقال صلاح الدين: هذا هو الحق، وكل ما نحن فيه من عدل فمنه تعلمناه^(٦).

٥ - رقبتى دقيقة لا أطيع حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى:

قال ابن الأثير: وحكى لي من أثق به أنه دخل يوماً إلى خزانة المال فرأى فيها مالاً أنكره فسأله

(١) الباهر ص ١٦٦ - ١٦٧.

(٢) الباهر ص ١٦٧ نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٧٩.

(٣) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٠.

(٤) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٠.

(٥) عيون الروضتين (١/٣٦٤).

(٦) المصدر نفسه (١/٣٦٥).

عنه، فقيل: إن القاضي كمال الدين أرسله وهو من جهة كذا. فقال: إن هذا المال ليس لنا ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء، وأمر برده وإعادته إلى كمال الدين فردّه إلى الخزانة وقال: إذا سألك الملك العادل عنه فقولوا له عني: إنه له. فدخل نور الدين الخزانة مرّة أخرى فرآه فأنكر على الثواب قال: ألم أقل لكم: يعاد هذا المال على أصحابه فذكروا له قول كمال الدين، فردّه إليه وقال للرسول: قل لكمال الدين: أنت تقدر على حمل هذا المال، وأما أنا فريقيّة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى، يُعاد قولاً واحداً^(١).

٦ - رجال القضاء في دولة نور الدين:

اعتمد نور الدين في أجهزته القضائية رجالاً ثقة عرف كيف ينتقيهم، بعد إذ رأى فيهم من الفقه الواسع والتقوى العميقة ما يؤهلهم لتسلم منصب القضاء الذي تربع في عهده - كما رأينا - قمة مؤسسات الدولة وحظي باستقلال تام وأصبح حكمه هو الحكم الملزم للجميع بما فيهم السلطان نفسه وكبار أمرائه ويبرز من بين حشد كبير من القضاة آل الشهرزوري وعلى رأسهم كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزوري، أولئك الذين كانوا قد تخصصوا منذ عهد عماد الدين زنكي في القضاء وما قبله وبرعوا فيها^(٢).

أ - القاضي كمال الدين الشهرزوري:

حدث في مطلع عام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م أن تقدم قاضي دمشق زكي الدين أبو الحسن علي بن القرشي برقعة إلى نور الدين يطلب فيها إعفاه من القضاء، فأجابته إلى طلبه وولى قضاء دمشق القاضي الإمام كمال الدين بن الشهرزوري وهو كما يصفه ابن القلانسي المعاصر له: المشهور بالتقدم ووفور العلم وصفاء الفهم والمعرفة بقوانين الأحكام وشروط استعمال الإنصاف والعدل والنزاهة وتجنب الهوى والظلم وحكم بين الرعايا بأحسن أفعال في حالة غيابه أو اشتغاله بمهمة ما فإن ولده محيي الدين ينوب عنه في منصبه^(٣)، كان كمال الدين قد ولد عام ٤٩١ هـ / ١٠٩٧ م وتفقّه ببغداد وسمع الحديث من كبار المحدثين^(٤) وقد تخرج من النظامية^(٥)، وكان يتردد إلى بغداد وخراسان رسولاً من عماد الدين زنكي، ثم ما لبث أن وفد على نور الدين^(٦) وأصبح بعد أقل من عامين (٥٥٧ - ١١٦١ م) قاضياً لقضاة الدولة كلها وأمر نور الدين القضاة ببلاده أن يكتبوا الكتب نيابة عنه وهناك من يقول إن زكي الدين قاضي دمشق لم يتقدم بالإعفاء عام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م وإنما أعفاه نور الدين بسبب امتناعه عن أن يكون أحد نواب كمال الدين، ومهما يكن من أمر فإن كمال الدين تمكن من منصبه وأصبح في دمشق كما يقول العماد: الحاكم المطلق^(٧) وأصبحت دولته نافذة

(١) عيون الروضتين (٣٦٤/١).

(٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٢.

(٣) المصدر نفسه ص ٨٢.

(٤) المصدر نفسه ص ٨٣.

(٥) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص ٢٢٢.

(٦) قضاة دمشق ص ٤٧ - ٤٨.

(٧) البرق ص ٢٢٢ نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٣.

الأوامر منتظمة الأمور^(١). وورد عنه كذلك أنه ارتقى إلى درجة الوزارة فكان له الحل والعقد في أحكام الشام^(٢). وكان له من صفاته الشخصية وسياسته القائمة على البر وحفظ الأصدقاء^(٣)، ومن ثقافته الواسعة وخبرته الفقهية والقضائية والسياسية، خير معين على مواصلة الطريق حتى النهاية ولم يكتف كمال الدين بمهامه القضائية بل كان يملك نزعة متأصلة للبناء والإعمار فأشرف بنفسه على بناء أسوار دمشق ومدارسها ومارستاناتها^(٤) وقد فوضه نور الدين مهمة الإشراف على دار الضرب وأوقاف الدولة وتوجيه مصارفها لبناء الأسوار وحفظ الثغور فأنجز مهمته على خير وجه^(٥)، كما أولى عناية خاصة بإعمار الجامع الأموي بدمشق والإنفاق عليه بسخاء^(٦). وزاد نور الدين على ذلك كله فاعتمده مبعوثاً إلى الخليفة العباسي في بغداد^(٧)، كما اعتمد ابنه محيي الدين نائباً عنه في قضاء حلب والبلدان التابعة لها فضلاً عن النظر في أمور ديوانها وكان محيي الدين هذا، كما يصفه العماد: من أهل الفضل، وله نظم ونثر وخطب، وكانت معرفته بالفقه في أيام التفقه في بغداد في المدرسة النظامية منذ سنة ٥٣٥ هـ - ١١٤٠ م^(٨)، كما اعتمد في حماة وحمص قضاء آخرين من بني الشهرزوري أنفسهم^(٩). وعندما دخل الموصل عام ٥٦٦ هـ - ١١٧٠ م أقر على قضائها حجة الدين بن نجم الدين الشهرزوري^(١٠).

ب - الشيخ شرف الدين أبو سعد بن أبي عصرون:

تولى قضاء سنجار ونصيبين وحران وغيرها من مدن ديار بكر، وأصبح هناك أشبه بقاضي القضاة ينوب عنه في سائر المدن نواب أشرف على تعيينهم بنفسه^(١١)، فقد ولد بالموصل سنة ٤٩٢ هـ أو ٤٩٣ هـ - ١٠٩٩ م وتفقه على جماعة من العلماء وانتقل إلى حلب سنة ٥٤٥ هـ - ١١٥٠ م، ثم قدم دمشق لدى دخول نور الدين إليها عام ٥٤٩ هـ - ١١٥٤ م ودرس في جامع دمشق، وتولى أوقاف المساجد، ثم رجع إلى حلب وأقام بها، وصنف كتباً كثيرة في الفقه والمذاهب ودرس على يديه عدد كبير من التلاميذ وانتفعوا به وكان فقيهاً من الطراز الأول، ووصف بأنه من أئمة أهل عصره، وأنه إمام أصحاب الشافعي يومذاك وكان متوحداً في العلم والعمل وسرعان ما تقدم عند نور الدين فكلفه بالإشراف على بناء المدارس في حلب وحمص وبعلبك وغيرها، ثم ما لبث أن ولاه قضاء ديار

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٣.

(٢) الخريد قسم الشام ص ٢٤٦ نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٣.

(٣) البرق ص ٢٢٢ - ٢٢٤.

(٤) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٣.

(٥) البرق ص ١٤٦ - ١٤٧.

(٦) البداية والنهاية نقلاً عن نور الدين محمود ص ٨٤.

(٧) الكامل في التاريخ نقلاً عن نور الدين محمود ص ٨٤.

(٨) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص ٨٤.

(٩) قضاة دمشق ص ٤٧ - ٤٨ نور الدين محمود ص ٨٤.

(١٠) البرق ص ٩٧ نور الدين محمود ص ٨٤.

(١١) البرق ص ١٠٠.

بكر ومنحه - كما سبق وأن ذكرنا - صلاحيات واسعة^(١). كما اعتمده عام ٥٦٦هـ - ١١٧٠ رسولاً إلى الخليفة المستضيء في بغداد^(٢). وقد توفي عام ٥٨٥هـ - ١١٨٩م^(٣).

٧ - رفع الضرائب والمكوس:

لم يترك نور الدين في بلد من بلاده ضريبة ولا مكساً ولا عشرأً إلا وأطلقها جميعها في بلاد الشام والجزيرة وديار مصر وغيرها، مما كان تحت حكمه، فقد كان المكس في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون ديناراً، أي ٤٥% وهذا إلغاء للمكوس، لم تتسع له نفس غيره^(٤) وكان رحمه الله نادماً على ما فاتته في أمر المكوس، فقد روى أبو شامة أن: الملك العادل كان يرفع يديه إلى السماء ويبكي ويتضرع ويقول: اللهم ارحم العشار المكاس.. وكان قد دعا أحد معاونيه - موفق الدين خالد - وقال له: اقعد واكتب بإطلاق المؤمن والمكوس والأعشار واكتب للمسلمين أنني قد رفعت عنكم ما رفعه الله تعالى عنكم، وأثبت ما أثبتته الله عليكم^(٥). وقد أمر بقراءة المناسير في الأقاليم في المساجد على الناس. روى أبو شامة: أن الملك العادل نور الدين لما دخل الموصل سنة ٥٦٦هـ، أمر بإسقاط جميع المكوس والضرائب وأنشأ بذلك منشوراً يقرأ على الناس فيه: وقد قنعنا من الأموال باليسير من الحلال، فسحقاً للسحت، ومحققاً للحرام الحقيقي بالمقت، وبعداً لما يبعد من رضا الرب، وقد استخرنا الله وتقربنا إليه بإسقاط كل مكس وضريبة في كل ولاية لنا بعيدة أو قريبة ومحو كل سنة سيئة شنيعة، وفي كل مظلمة فظيعة وإحياء كل سنة حسنة.. إيثاراً للثواب الأجل على الحطام العاجل^(٦). وقرئ منشور آخر بإسقاط المكوس بمصر على المنبر في القاهرة عام ٥٦٧هـ بعد صلاة الجمعة، عن السلطان صلاح الدين، في أيام نور الدين وبأمره جاء فيه: وقد رأينا إسقاط المكوس الديوانية بمصر والقاهرة وأن نتجرد فيها، لنلبس أثواب الأجر الفاخرة، ونظهر منها مكاسبنا ونكفي الرعية ضرهم.. ونضع المكوس فلا ترفعها من بعد، يد حاسب ولا قلم كاتب^(٧). وهدد من لا يطبق ذلك من المسؤولين: ومن أزالها زلت قدمه، ومن أحلها حلّ دمه ومن قرأه أو قرئ عليه فليمتثل ما أمرنا به وليمضه مرضياً لربه، ممضياً لما أمر به^(٨)، ولم ترق هذه الخطة في إلغاء الضرائب لرجال الدولة، فاحتج أسد الدين شيركوه بقوله: فالأجناد الذين تأتي أرزاقهم من هذه الجهات، من أين تعطيتهم أرزاقهم؟ أي رواتبهم؟ فأجابته نور الدين: إن كنا نغزو من هذه الجهات أي من هذه الموارد: نتركها ونقعد ولا نخرج^(٩). ولم يكتف نور الدين بذلك، بل أمر خطباء المساجد أن يطلبوا من الناس،

(١) وفيات الأعيان (٥٣/٣ - ٥٦).

(٢) مرآة الزمان (٢٨٣/٨).

(٣) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٥.

(٤) عيون الروضتين في أخبار الدولتين (٣٦٢/١).

(٥) كتاب الروضتين نقلاً عن الجهاد والتجديد ص ٣٢٧.

(٦) كتاب الروضتين نقلاً عن الجهاد والتجديد ص ٣٢٨.

(٧) المصدر نفسه ص ٣٢٨.

(٨) المصدر نفسه ص ٢٣٨.

(٩) كتاب الروضتين (٦٧/١).

أن يسامحوه فيما جى منهم قبلاً من هذه الضرائب وكتب إلى الخليفة كتاباً يعلمه بما أطلق وبمقدار ما أطلق ويسأله أن يتقدم إلى الوعاظ بأن يستعجلوا من التُّجَّار ومن جميع المسلمين له في حلِّ مما كان قد وصل إليه يعني من أموالهم فتقدّم بذلك وجعل الوعاظ على المنابر ينادون بذلك^(١).

وعندما خرج لأخذ شيزر خرج أبو غانم بن المنذر في صحبته فأمره نور الدين رحمه الله بكتابة منشور بإطلاق المظالم بخلب ودمشق وحمص وحرّان وسنجان والرحبة. وعزاز، وتل باشر، وعداد العرب، فكتب عنه توقيعاً نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقرب به إلى الله سبحانه وتعالى صافحاً وأطلقه مسامحاً لمن علم ضعفه من الرعايا عن عمارة ما أخربته أيدي الكُفَّار، أبادهم الله، عند استيلائهم على البلاد وظهور كلمتهم في العباد، رافة بالمسلمين المتأخرين^(٢)، ولطفاً بالضعفاء المرابطين، الذين خصّهم الله سبحانه بفضيلة الجهاد، واستمنحهم بمجاورة أهل العناد اختباراً لصبرهم وإعظاماً لأجرهم، فصبروا احتساباً، وأجزل الله لهم أجراً وثواباً^(٣) إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ { (الزمر، آية: ١٠) وأعاد عليهم ما اغتصبوا عليه من أملاكهم التي أفاء الله عليهم بها من الفتوح العمرية وأقرها من الدولة الإسلامية بعدما طرأ عليها من الظلمة المتقدمين، واسترجعه بسيفه من الكفرة الملاعين، فطمس عنهم بذلك معالم الجور وهدم أركان التعدي، وأقر الحق مقره لقلوبه: تعالى {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا} (الأنعام، آية: ١٦٠) {وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ} (البقرة، آية: ٢٦٢). ثم لما أعانه الله بعونه وأيده بنصره، وقمع به عادية الكفر، وأظهر بهمته شعائر الإسلام، وأظفره بالفئة الطاعنة، وأمكناه من ملوكها الباغية، فجعلهم بين قتيل غير مقاد وهارب ممنوع الرقاد {وَأَخْرَجَ مَقْرَبِينَ فِي الْأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ} (ص، الآيات: ٣٨ - ٤٠) علم أن الدنيا فانية فاستخدمها للأخرة الباقية، واستبقى ملكه الزائل بأن قدّمه أمامه، وجعله ذخراً للمعاد، فالتقوى مادة دارة إذا انقطعت المواد وجادة واضحة حين تلتبس الجواد {يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ} (الأنفطار، آية: ١٩) فصفح لكافة المسافرين وجميع المسلمين بالضرائب والمكوس، وأسقطها من دواوينه وحرّمها على كل متناول إليها، ومتهافت عليها، تجنباً لإثمتها واكتساباً لثوابها، فكان مبلغ ما سماح به وأطلقه وأنفذ الأمر فيه - اتباعاً لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ - في كل سنة من العين مئة ألف وستة وخمسين ألف دينار^(٣).

وكانت النتيجة الطبيعية لذلك، أن نشط الناس للعمل، فأخرج التجار أموالهم، ومضوا يتاجرون، وجاءت الجبايات الشرعية بأضعاف ما كان يجبي من وجوه الحرام بينما كان ما ألغاه من المكوس

(١) كتاب الروضتين (٦٩/١).

(٢) المتأخرين: سكان الثغور.

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٧٠/١).

المستحدثة لا يزيد عن (١٦٥ . ٠٠٠) مائة وخمسة وستين ألف دينار^(١)، ويقول ابن خلدون: العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بأمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يروونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها، انقضت أيديهم عن السعي في ذلك، وعلى قدر الاعتداء ونسبته، يكون انقباض أيديهم^(٢) عن المكاسب، كسدت أسواق العمران، وانتقضت الأحوال ويقول: العدوان على الناس في أموالهم وحرهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم.. يفضي إلى الخلل والفساد دفعة وتنتقص الدولة سريعاً^(٣).

وكانت هناك أمور عديدة ساعدت نور الدين على إلغاء المكوس وأهمها على الإطلاق توفيق الله له، فقد رأى له وزيره موفق الدين خالد بن القيسراني الشاعر في منامه أنه يغسل ثيابه وقص ذلك عليه ففكر ساعة، ثم أمره بكتابة إسقاط المكوس وقال: هذا تفسير منامك. وكان في تهجده يقول: ارحم العشار المكاس وبعد أن أبطل ذلك استعجل الناس في جلا وقال: والله ما أخرجناها إلا في جهاد عدو الإسلام، يعتذر بذلك إليهم عن أخذها منهم^(٤) ومن الأسباب التي كانت محركاً لنور الدين في إبطال تلك المظالم والخلاص من تلك المآثم موعظة أبي عثمان المنتخب بن أبي محمد البحري الواسطي فقد قال قصيدة في نور الدين وقدمها له جاء فيها:

مئلٌ وقوفك أيها المغرور	:::	يُومُ القِيَامَةِ والسَّمَاءُ تَمُورُ
إن قيل نور الدين رحمت مسلماً	:::	فاحذر بأن تبقى وما لك نور
أنهيت عن شرب الخمر وأنت من	:::	كأس المظالم طافح مخمور
عطلت كاسات المدام تغففاً	:::	وعليك كاسات الحرام تدور
ماذا تقول إذا نقلت إلى البلى	:::	فرداً وجاءك منكرو ونكير
وتعلقت فيك الخصوم وأنت	:::	في يوم الحساب مسحب مجرور
وتفرقت عنك الجبود وأنت	:::	في ضيق اللحود مؤشدد مقبور
ووددت أنك ما وليت ولاية	:::	يوماً ولا قال الأنام أمير
وبقيت بعد العز رهن خفيرة	:::	في عالم الموتى وأنت حقير ^(٥)
وحشرت غريباناً حزيباً باكياً	:::	قل قلباً وما لك في الأنام مجير
أرضيت أن تحيا وقلبك دارس	:::	عافي الخراب وجسمك المعمور
أرضيت أن يحظى سواك بقربه	:::	أبدأ وأنت ميعد مهجور
مهتد لنفسك حجة تنجو بها	:::	يُومُ المَعَادِ لعلك المعذور

وكان هذا الرجل من الصالحين الكبار فلما سمعها نور الدين بكى وأمر بوضع المكوسات والضرائب في سائر بلاده^(٦)، فرحم الله الواعظ والمتعظ ووفق من أراد الاقتداء بهم.

(١) الجهاد والتجديد ص ٣٢٩.

(٢) المقدمة ص ٢٨٦ معوقات الجهاد (١/٤٢٢).

(٣) المقدمة ص ٢٩٠.

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/٥٤).

(٥) أخبار الروضتين (١/٥٦).

(٦) البداية والنهاية (٦/٤٨٩).

٨ - ما قيل من الشعر في عدله:

قال ابن منير:

بنور الدين روض كلِّ محلّ :: من الدنيا وُجدد كُـلُّ بالِ
 وَصَوَّبَ عدله في كُـلِّ أوب :: عوض عاظلاً منه بحالِ
 ويُنكسي رأيه رأي المحامي :: ويُقْبَلُ خوفه قبل القتالِ
 لقد أحصدت للإسلام عزاً :: يفوت سنامه يد كُـلِّ قال (١)

وقال أيضاً:

وانتشى دين محمدٍ محمودُهُ :: من بعدما علق دماً عَـرَـائِـهُ
 رددت على الإسلام عصـر شـبابه :: ثباته من دونه وثباتُهُ
 أرسى قواعده ومدَّ عمادَهُ :: صُعداً وشيئداً سورهُ سـورائِهِ
 وأعاد وجه الحقِّ أبيض ناصعاً :: إصـلائُهُ وصـلائُهُ وصـلائُهُ (٢)

وقال أيضاً:

لا تأمنوا في الله بطشة ثائرٍ :: لله ملءٌ سريره أسرارُ
 صافٍ إذا كـلـر المعادين عادِلٌ :: إن حاف حُكـام الملوك وجاروا (٣)

وقال أيضاً:

أو لستَ من ملأ البسيطة عدله :: واجتَبَ بالمعروف أنف المنكرِ
 حذب الأب البر الكبير، ورأفة :: الأم الحفيصة باليتيم الأصغر
 يا هضبة الإسلام من يعصم بها :: يَأْمَنُ، وَمَنْ يَتَوَلَّ عنها يَكْفُرُ (٤)

وقال أيضاً:

لا مُلكَ إلا مُلكُ محمود الذي :: تُخـدَ الكتاب مظاهراً ووزيراً
 تمشي وراء حدوده أحكامُهُ :: تَأْتُمُهُنَّ فيحكم التقديراً
 يقظان ينشر عدله في دولة :: جـاءت لِمَطْـوِي السـماح نـشـورا (٥)

وقال أيضاً:

يا سائلي عن نهج سيرته :: هل غير مفرق هامة الفجر
 عدل حقيق من تأملته :: أن يحيي العميرين بالذكر (٦)

وقال أيضاً:

ثنى يده عن الدنيا عفاف :: ومال بها عن الأموال زهد

(١) كتاب الروضتين نقلاً عن شعر الجهاد الشامي ص ١٦٧.

(٢) شعر الجهاد الشامي ص ١٦٨.

(٣) شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين ص ١٧٠.

(٤) المصدر نفسه ص ١٧٠.

(٥) المصدر نفسه ص ١٧١.

(٦) عيون الروضتين (١/٣٨٦، ٢٨٧)

رأى حط المكوس عن الرعايا :::: فأهدر ما أنشأه بعد
 ومد لها رواق العدل شرعاً :::: وقد طوى الرواق ومن يمد^(١)
 وبات وعند باب العرش منها :::: لدولته دعاء لا يرد^(٢)

وقال العماد الأصفهاني في عدله:

يا محيي العدل الذي في ظله :::: من عدله رعت الأسود مع المهة
 محموداً المحمود من أيامه :::: لبهاها ضحك الزمان وقهقهة^(٣)

إن الملك العادل نور الدين زنكي حرص على بناء مجتمع العدل والقوة، وسوف يأتي الحديث بإذن الله عن اهتمام نور الدين بالقوة العسكرية، ولا شك أن القوة العسكرية لا يمكن بناؤها في مجتمع ضعيف فهي جانب من جوانب المدينة المتكاملة، فالمجتمع القوي عسكرياً يلزم أن يكون قوياً في صناعاته الأخرى لأن الأمن العسكري يحتاج إلى الأمن الثقافي والأمن الغذائي والأمن الصحي^(٤)، وهذه الأمور عمل نور الدين على توفيرها كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} (الحديد، آية: ٢٥). فهذه الآية الكريمة توضح الأسس اللازمة لبناء مجتمع قوي متحضر، يقوم على العدل والقوة، فالكتاب والميزان لإقامة العدل، والحديد لإيجاد القوة التي تحمي العدل وتكفل استمراره ولو أردنا تحويل هذا الشرح إلى لغة لقلنا: إن الآية تشير إلى أن المجتمع المتحضر ينبغي أن تتوفر له الأيدولوجية الصالحة زائد التكنولوجيا المتقدم، فالأيدولوجية تحفظ البنية الاجتماعية متماسكة بعيدة عن التجزئة والتشردم، وتمنحها الأهداف ووحدة الحركة والتصميم والإرادة وتمنع ذوبانها في البنى الاجتماعية المغايرة في العقيدة والفكر والتنظيم الاجتماعي والاقتصادي، والتكنولوجيا يمنحها فرص التقدم على الآخرين علمياً وصناعياً، ليس من أجل إذلالهم واستعمارهم فالأيدولوجية الإسلامية لا تسمح بذلك، بل لإقامة العدل في الأرض بعد إقامته في المجتمع الإسلامي ثم لضمان استمرار العدل الذي أرسل الله تعالى الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - لبيانه ووضع الموازين الحق له، فنزول الكتب السماوية وخاتمتها القرآن الكريم يهدف إلى تثبيت موازين العدالة وبيان الأسباب والوسائل اللازمة لتحقيقها، فالناس يقومون بالعدل ويحيون بالأمل ويسعون بالأمن وينتفعون بالعمل والإنتاج^(٥).

إن العدل الشامل لا يتحقق إلا بتطبيق شرع الله تطبيقاً قائماً على الفهم الصحيح للكتاب والسنة والمعرفة الدقيقة بالواقع من ناحية وبمقاصد الشريعة الإسلامية من ناحية أخرى، وهو أمر لا يتحقق

(١) المصدر نفسه (٣٨٨/١).

(٢) عيون الروضتين (٣٨٨/١).

(٣) شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين ص ١٧٤.

(٤) الإسلام والوعي الحضاري د. أكرم العمري ص ١١٥.

(٥) الإسلام والوعي الحضاري ص ١١٧.

إلا بتكوين العدد المناسب من العلماء المجتهدين النابهين^(١).

رابعاً: مكانة العلماء في دولة نور الدين محمود:

فهم نور الدين محمود زنكي أن من أسباب النهوض وجود القيادة الربانية، فهي التي تستطيع أن تنتقل بفضل الله وتوفيقه بالأمة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة وكان على قناعة تامة بأهمية وجود العلماء الربانيين على رأس القيادة الربانية فهم قلب القيادة الربانية وعقلها المفكر فنور الدين زنكي يعرف أن تحرير الأرض وتوحيدها ليس عملاً سياسياً أو عسكرياً فحسب، بل إنه أوسع من ذلك بكثير، إنه مواجهة المذهب الشيعي الرافضي الباطني والذي كان بالفعل خطراً داخلياً يهدد عقيدة الأمة وسلامة دينها والصراع الحضاري مع الغرب الأوروبي النصراني، أي بين أمة وأمة وأنه بدون تأصيل (الذات العقائدية) للأمة المسلمة فلن تكون انتصاراتهم على الخصم سوى أعمالاً جزئية موقوتة معرضة دوماً للمد والجزر وللتغيير والتبدل كما كان يحدث دائماً وما يقتضيه (الموقف) هذا، ليس مجرد انتصار خارجي في معركة أو استرداد حصن.. إنما بناء أمة مقاتلة تعرف كيف تحمي وجودها العقائدي وتحفظ حدود شخصيتها الحضارية من أن تتفتت وتضيع وحينذاك سوف يتحول كل عنصر عسكري أو كسب سياسي إلى إنجاز بنائي يزيد المجتمع المقاتل قوة وأصاله وتماسكاً لا مجرد تكديس شيء لا يشده الرباط تكديس كمي يثبت للضربة والضربتين ولكنه الثالثة أو الرابعة ينهار فتذهب مع انهياره هدراً جهود السنين الطوال وعرقها ودمائها^(٢).

فالنشاط العلمي في عصر نور الدين لم يكن أبداً ترفاً فكرياً، ولا إفرازاً تقليدياً لأجهزة الدولة، لكنه (تصميم) هادف يسعى إلى عملية (التأصيل العقائدي) من خلال نشاط ثقافي وتربوي واسع النطاق يرتبط به الفكر بالسلوك، والعلم بالعمل، وتزول حواجز الفصل والازدواج، وتنمحي الثنائيات، ويبرز إلى حيز التاريخ (الإنسان) المتوازن الذي أراده الإسلام، (والجماعة) المؤمنة التي دعا إليها كتاب الله وسنة رسوله^(٣) وهذا الإنسان المتوازن لا بد أن يشرف على إخراجه قيادة ربانية على رأسها العلماء الربانيون، وقد كان نور الدين نفسه عالماً قبل أن يكون حاكماً وكان هذا نقطة البدء وحجر الزاوية^(٤) فقد كان يعشق العلم ويسعى وهو في قمة السلطة إلى التشبه بالعلماء والصالحين والافتداء بسيرة من سلف منهم^(٥)، وكان العلماء عنده في المنزلة الأولى والمحل العظيم

(١) المصدر نفسه ص ١١٧.

(٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٣٩.

(٣) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٣٠.

(٤) المصدر نفسه ص ١٣١.

(٥) كتاب الروضتين نقلًا عن نور الدين محمود ص ٣٥.

(١)، يحضرهم إلى مجلسه، فيدنيهم ويتواضع لهم، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مذتقع عينه عليه، ويجلسه معه ويقبل عليه بكلية تعظيماً وتوقيراً واحتراماً^(٢)، وكان مجلسه ندوة كبيرة يجتمع إليها العلماء والفقهاء للبحث والنظر^(٣) وكان نور الدين عارفاً بمذهب أبي حنيفة، ملتزماً به، من غير تعصب منه ولا تحيز فالمذاهب عنده - كما أجمع المؤرخون - كلها سواء والإنصاف سجيته في كل شيء^(٤)، سمع الحديث حتى حصل على الإجازة العلمية التي تتيح له أن يسمعه للآخرين.. ولقد مارس مهمة التحديث هذه رغم كثافة عمله السياسي والعسكري، محاولة في تعزيز مكانة (السنة) ونشرها بالحفظ والأداء والتحديث^(٥)، كما ألف كتاباً في الجهاد^(٦)، وأوقف كتباً كثيرة في مدارسه، وكان حسن الخط كثير المطالعة للكتب الفقهية متميزاً بعقله المتين ورأيه الثاقب الرزين^(٧)، ولا شك أن هذا التوجه العلمي عند نور الدين أثر على سياسته التعليمية والتربوية التي شهدتها دولته^(٨).

إن أمة يسوسها العلماء والمتخصصون يمكن أن تينع وتزهو فيها شجرة المعرفة، ويوم نرى هذه الشجرة تذبل وتذوى وتنفض عنها أوراقها الصفراء، فلنا أن نحكم بأن هنالك في القمة حفنة من الجهلاء.

إن جهود نور الدين محمود في دعم العلماء واحترامهم وفتح مؤسسات الدولة للاستفادة منهم تذكرنا بمنهج عمر بن عبد العزيز، فيمكن أن نطلق على دولة عمر بن عبد العزيز دولة العلماء، كما أن في دولة نور الدين مكانة للعلماء غير مسبوقة بالنسبة لمن سبقه من السلاجقة أو الحكام الذين حوله.

١ - تقديمه للعلماء على الأمراء:

كان أمراء نور الدين يحسدون العلماء والفقهاء على مكانتهم عنده فكان إذا أعطى أحداً منهم شيئاً مستكثراً يقول لأصحابه: هؤلاء جند الله وبدعائهم ننتصر على الأعداء ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا^(٩). وكان هؤلاء الأمراء يحاولون أحياناً الإيقاع برجال الدين والعلماء عند نور الدين، ينهاتهم وإذا نقلوا عن إنسان عيباً يدافع عنه ويقول لهم: من المعصوم؟ ويكفيها هنا أن نذكر رده على بعض أكابر الأمراء عندما حاول النيل من الفقيه قطب الدين النيسابوري^(١٠)، عنده وكان نور الدين قد استقدمه من خراسان وبالغ في إكرامه

(١) مفرج الكروب (٢٨٣/١) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٣٥.

(٢) الباهر ص ١٧١ - ١٧١ نور الدين محمود ص ٣٦.

(٣) الباهر ص ١٧١ - ١٧٣ نور الدين محمود ص ٣٦.

(٤) الباهر ص ١٦٥.

(٥) الكواكب ص ٥٦ - ٥٧ الباهر ص ١٦٥ - ١٦٦.

(٦) مرآة الزمان (٣١٣/٨) نور الدين محمود ص ٣٦.

(٧) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص ٣٦.

(٨) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٣٩.

(٩) البداية والنهاية نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء في الشرق الأدنى ص ١٢٢.

(١٠) دور الفقهاء، والعلماء في الشرق الأدنى ص ١٢٣.

والإحسان إليه فقال نور الدين له: يا هذا إن ما تقوله فله حسنة تغفر له كل زلة تذكرها وهي العلم والدين، وأما أنت وأصحابك ففيناك أضعاف ما ذكرت وليست لكم حسنة تغفرها لو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك وأنا أحتمل سيناتكم مع عدم حسناتكم، أفلا أحتمل سينة هذا - إن صحت - مع وجود حسناته؟ على أنني والله لا أصدقك فيما تقول، وإن عدت لذكره أو غيره بسوء لأؤذيتك، فكف عنه (١).

٢ - البذل والعطاء للعلماء:

لم يقف نور الدين في تعامله مع العلماء عند حدود التشجيع الأدبي والعلاقة الودية، والكلمة الطيبة ولكنه تجاوز هذا - على أهميته - إلى البذل والعطاء، فكان يمنهم بسخاء مقدراً أن هذه الفئة الممتازة يجب أن تظل عزيزة الجانب وألا تلجأها الضرورات القاسية إلى أن تنزل درجات إلى أسفل فتحني رأسها وتلوي فكرها أو تتملق وتداهن وتغش وتكذب طلباً للأجر وسداً للحاجة، ويدرك في الوقت نفسه كم هي عظمة الجهود التي يبذلها هؤلاء الرجال (٢).

إن أمة تريد من علمائها أن يعطوها ثمار قرائحهم صافية خالصة عليها ألا تبخل عليهم بما يسد حاجتهم الضرورية ويفيض عليها لكي لا تشدهم إلى أسفل، ولكي تظل رؤوسهم مرفوعة إلى فوق، فلا يشغلهم شيء في بحثهم عن الحقيقة، ولا تتدلى بهم حاجة عن المواقع التي بلغوها بعلمهم، كان نور الدين إذا أعطى أحداً منهم الشيء الكثير يقول: هؤلاء جند الله وبدعائهم ننتصر على الأعداء ولهم في بيت المال أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنّة علينا (٣)، ولم يبخل عليهم بتخصيص أوقاف ضخمة على المدارس وعلمائها حتى تحفظ لهم حياة كريمة.

وقد وسع نور الدين نطاق (الخدمات العلمية) للدولة ومنح الضمانات الكافية للمدرسين والدارسين على السواء، ومكّن العلماء بما خصصه لهم من إعطيات، من أن يتفرغوا لمهامهم العلمية (٤)، وهذا المنهج من هدي عمر بن عبد العزيز، فقد وضع قانون التفرغ للعلماء والدعاة والمفكرين، كي تتيح لهم التفرغ الكامل لإنجاز المشاريع الفكرية الدعوية التي يعكفون عليها باختيار أو بتوجيه من الدولة فأجرى الأرزاق على العلماء، ورتب لهم الرواتب ليتفرغوا لنشر العلم ويكفوا مؤونة الاكتساب (٥)، وهذا الفعل من نور الدين محمود وعمر بن عبد العزيز من أسباب التمكين المادية، فالأعمال العظيمة تحتاج إلى أوقات كبيرة وجهود ضخمة وهم عالية، ولذلك تضطر الأمة الواعية إلى مبدأ التفرغ مع التنوع والتكامل حتى تسد كل الثغرات التي تحتاجها ولا يقع تركيز على جانب فيتضخم بينما تهمل جوانب الأخرى ولا بد من توفير المال اللازم لهذه المشاريع لأنها من

(١) الباهر نقلاً عن نور الدين محمود ص ١٣٤.

(٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٤٠.

(٣) الباهر ص ١٧٣ البداية والنهاية نقلاً عن نور الدين محمود ص ١٤١.

(٤) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٤١.

(٥) الخليفة الراشد والمصلح الكبير عمر بن عبد العزيز ص ٢٦٥.

أعظم القربات إلى الله - تعالى - كما يجوز أخذ مال الزكاة أو الصدقة أو الوقف أو الوصية أو الهبة أو الهدية لسد هذه الثغرات المهمة، كما ينبغي توفير كل ما يحتاجه المتفرغ وذويه من الأجر الكافي حتى يتفرغ للعبادة والبذل مع مراعاة عدم الإسراف والبذخ، ولا بد من الخوف من الله تعالى عند اختيار المتفرغ بحيث يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب دون محاباة لعمرو أو زيد^(١)، قال تعالى: {إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} (القصص: ٢٦).

٣ - اهتمامه بعلماء المدارس النظامية:

من أهم العوامل التي يسرت أمام نور الدين سبيل النجاح أنه لم يبدأ من فراغ وإنما استفاد من جهود المدارس النظامية التي أسسها نظام الملك الوزير السلجوقي الشهير وقد تحدثت عنها بنوع من التفصيل في كتابي دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، فقد انتفع الملك العادل نور الدين محمود بما حققته المدارس النظامية من نتائج باهرة والتي في مقدمتها تخريج جيل يعي حقيقة الصراع والأخطار المحيطة به من باطنية وصلبيية وهو مؤهل بأن يحمل على عاتقه مهمة الدعوة للمذهب السني والانتصار له والدفاع عنه وقد استفاد نور الدين من عدد كبير من هؤلاء العلماء الذين تخرجوا من النظاميات ومنهم: القاضي كمال الدين الشهرزوري والذي كان بمثابة وزير له، والقاضي شرف الدين بن أبي عصرون الذي أنشأ له نور الدين عدة مدارس في أماكن مختلفة، والعماد الأصفهاني الذي عمل مدرساً في بعض مدارس دمشق إلى جانب قيامه برئاسة ديوان الإنشاء لنور الدين في فترة من الفترات، والقطب النيسابوري الذي كان له دور في نشر السنة بجلب عن طريق التدريس بالمدرسة النفرية النورية بها، ثم أكمل رسالته التعليمية في دمشق عندما انتقل نور الدين إليها، وعبد الرحيم بن رستم أبو الفضائل الزنجاني الشافعي (ت ٥٦٣هـ) الذي ولاه نور الدين قضاء بعلبك ودرس ببعض مدارس دمشق^(٢)، وأصبح الشام في عهد نور الدين والأيوبيين مركزاً لهجرة كثير من العلماء من أنحاء شتى من العالم الإسلامي، وشارك كثير منهم في الجهود التي قام بها نور الدين وهو يمكن لمذهب أهل السنة^(٣).

٤ - هجرة العلماء إلى دولة نور الدين محمود:

شهدت بلاد الشام في عصر نور الدين نشاطاً عالمياً لم تشهد له مثيلاً من قبل إلا لماماً، وتدفق العلماء على حواضر الدولة وبخاصة حلب ودمشق من أطراف الأرض، وقصدوا الرجل من البلاد الشاسعة^(٤) حتى أن بلاد الشام كانت، كما يصفها أبو شامة: خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية^(٥)، فالدولة التي تهيئ الأرضية الأكثر صلاحية للعبادة

(١) أولويات الحركة الإسلامية ص ١٩٣ فقه النصر والتمكين ص ٢٧٢.

(٢) التاريخ السياسي والفكر للمذهب السني ص ٢٢٢.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٢٣.

(٤) الباهر ص ١٧١ - ١٧٢ نور الدين محمود زنكي ص ١٤٤.

(٥) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود زنكي ص ١٤٤.

العلمي، وتمنح المال الأكثر للبحث والدراسة والتفرغ، وتنشئ المؤسسات اللازمة لإبداع العلماء والباحثين - هي التي تستقطب العقول الكبيرة في كل زمان ومكان، ولقد أدرك نور الدين أهمية هذه الهجرة العلمية فعمل بنفسه على توسيع نطاقها وراح يكتاتب العلماء من شتى البلاد البعيدة والقريبة، ويستقدمهم إليه ويبالغ في إكرامهم والإحسان إليهم^(١)، وقد استقدم - على سبيل المثال.

أ - برهان الدين أبو الحسن علي بن محمد البلخي (٥٤٨/١١٥٣م) وهو من علماء الأحناف، فقد استقدم من دمشق، حال استكمال بناء المدرسة الحلاوية وفي حلب لغرض التدريس فيها، وكان قد تفقه فيما وراء النهر، وبغداد، والحجاز، ثم قدم دمشق عام ٥١٩هـ وجلس للوعظ وكان يتميز بصدق كلماته فلفت قبولاً حسناً في قلوب الناس، وكان حسن الاعتقاد زاهداً في الدنيا، وقفت عليه الأوقاف الكثيرة، وكثرت الأعطيات فلم يلتفت إليها^(٢)، وقد قام برهان الدين البلخي بدور كبير في مساعدة نور الدين في القضاء على مظاهر التشيع بحلب^(٣).

ب - الفقيه أبو العباس السلفي: فقد قام برهان الدين البلخي إثر توليه الحلاوية، باستدعاء الفقيه برهان أبا العباس أحمد السلفي - من دمشق أيضاً - ليكون نائباً عنه فيها فاعتذر عن القبول فسير إليه برهان الدين كتاباً ثانياً يستدعيه فيه ويشدد عليه في الطلب، فقدم الرجل ولم يزل نائباً عن برهان الدين في المدرسة المذكورة حتى وفاته، حيث حزن عليه برهان الدين حزناً شديداً ولم يزل - الأخير - مدرساً هناك إلى أن غادر حلب إلى دمشق بسبب خلاف وقع بينه وبين ابن الداية نائب حلب، وما لبث أن توفي عام ٥٤٨هـ. وحل محله في التدريس عبد الرحمن ابن محمود بن محمد الغزنوي حتى وفاته سنة ٥٦٤هـ^(٤)، ثم تعاقب عليها المدرسون القادمون من جهات شتى^(٥).

ج - عالي بن إبراهيم الحنفي الغزنوي: تعاقب على المدرسة الحلاوية مدرسون من جهات شتى وكان من بينهم رضي الدين محمد بن محمد السرخسي صاحب كتاب (المحيط) وكان في لسانه لكمة غير عربية، فكتب نور الدين إلى عالي بن إبراهيم الحنفي الغزنوي البلقي، وكان في الموصل، يطلب منه الوصول إلى حلب ليوليه التدريس في المدرسة المذكورة وعين في المدرسة الحلاوية حتى وفاته عام ٥٨١هـ أو ٥٨٢هـ بينما أقرّ علاء الدين على التدريس في الحلاوية وظل هناك يمارس مهمته التدريسية حتى وفاته عام ٥٨٧هـ أي بعد ثمانية عشر عاماً وقد وصفه ابن شداد بأنه: كان من ذوي التحصيل والتصانيف البديعة في أحكام الشريعة والكتب التي سارت في الأفاق ذكرها^(٦) تفقه

(١) زبدة حلب (٢٩٣/٢ - ٢٩٤) مفرج الكروب (٢٨٣/١).

(٢) زبدة حلب (٢٩٣/٢ - ٢٩٤) مفرج الكروب (٢٨٣/١).

(٣) مرآة الزمان (٢١٩/٨ - ٢٢٠) نور الدين محمود ص ١٤٥.

(٤) نور الدين محمود ص ١٤٥.

(٥) المصدر نفسه ص ١٤٥.

(٦) نور الدين ص ١٤٦.

في بلاد المشرق على محمد بن أحمد السمرقندي وقرأ عليه معظم تصانيفه فزوجه شيخه بابنته فاطمة، الفقيهة العالمية، وقد برع علاء الدين في علمي الأصول والفروع وصنف كتاب البدائع في شرح (التحفة) التي ألفها شيخه^(١). وكانت زوجته فاطمة على قدر كبير من العلم والتقوى، تفقّحت على أبيها وحفظت مصنفه التحفة وكانت تنقل المذهب نقلاً جيداً وكان زوجها ربما يهّم بالفتوى فترده إلى الصواب وتعرفه وجهة الخطأ فيرجع إلى قولها وكانت تمارس الإفشاء وكان زوجها يحترمها ويكرمها، وكانت الفتوى تخرج بخطها وخط أبيها وزوجها وهي التي سنّت تقديم طعام الإفطار في رمضان لفقهاء المدرسة الحلاوية في حلب^(٢).

د - الإمام شرف الدين ابن أبي عصرون: وعندما تم استكمال المدرسة العسرونية في حلب عام ٥٥٠ هـ استدعى لها نور الدين من إحدى نواحي سنجار - غربي الموصل - الشيخ الإمام شرف الدين ابن أبي عصرون الذي كان - بحق - من أعيان فقهاء عصره وأراد نور الدين الإفادة من كفاءة الرجل إلى المدى الأقصى فبنى له مدارس عدة في منبج وحماة وحمص وبعليك ودمشق وفوّضه أن يولي التدريس فيها من يشاء ولم يزل ابن أبي عصرون يتولى أمر مدرسته في حلب إدارة وتدرّساً إلى أن غادر حلب إلى دمشق سنة ٥٧٠ هـ^(٣).

هـ - قطب الدين مسعود النيسابوري: وفي عام ٥٤٤ هـ تم بناء المدرسة النفرية في حلب لتدريس المذهب الشافعي، واستدعى للتدريس فيها الفقيه المشهور قطب الدين مسعود النيسابوري مصنف كتاب (الهادي) في الفقه^(٤) وكان النيسابوري قد بدأ ممارسة نشاطه العلمي في نيسابور ومرو، وسمع الحديث على عدد من الشيوخ وقرأ القرآن والأدب على والده، والتقى بأبي نصر القشيري ودرّس بالنظامية في نيسابور نيابة عن ابن الجويني، ثم سافر إلى بغداد حيث مارس الوعظ والكلام في المسائل، فلقى هناك قبلاً حسناً، وغادرها إلى دمشق عام ٥٤٠ هـ فدرّس في مدارسها ووعظ في مساجدها فأقبل الناس عليه، ومن هناك استدعي إلى حلب للتدريس في المدرسة المذكورة وكان من العلم والدين والصلاح والورع بمكان كبير^(٥). ووصفه العماد الأصفهاني بأنه: فقيه عصره ونسيج وحده^(٦)، وقد أرسله نور الدين ثانياً إلى دمشق سنة ٥٦٨ هـ لاستئناف نشاطه التدريسي هناك، فدرّس في زاوية الشافعية بمدرسة الجاروخ شمالي الجامع الأموي واجتمعت طلبة العلم عليه ومن أجل الإفادة من فقهه قرر نور الدين بناء مدرسة كبيرة للشافعية يتولى الرجل التدريس فيها، وقد شرع بالبناء فعلاً، لكن الأجل أدركه قبل استكمال عمارتها^(٧)، وتوفي النيسابوري بعده بحوالي عشر

(١) تاريخ حلب (٣٠٥/٤ - ٣٠٨) نور الدين محمود ص ١٤٦.

(٢) نور الدين محمود ص ١٤٦.

(٣) زبدة حلب (٢٩٣/٢ - ٢٩٤) نور الدين محمود ص ١٤٧.

(٤) زبدة حلب (٢٩٣/٢ - ٢٩٤) نور الدين محمود ص ١٤٧.

(٥) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٤٧.

(٦) البرق ص ١٣٤ - ١٣٥ نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٤٧.

(٧) مرآة الزمان (٢٩٤/٨).

سنتين ٥٧٨هـ^(١).

و - سعيد بن سهل أبو المظفر المعروف الفلكي النيسابوري: المتوفى سنة ٥٦٠هـ والذي درس الحديث وأقام في خوارزم وزيراً وأميراً لها ورحل إلى بغداد مراراً وحَدَّث بها عند جماعة من الشيوخ، ثم سافر إلى دمشق في طريقه لزيارة القدس فقدم في أيام نور الدين الذي أكرم وفادته ولما طلب النيسابوري العودة إلى بلاده لم يسمح له نور الدين وأمسك به وأنزله الخانقاه والسميساطية

وجعله شيخها فأقام بها حتى وفاته. وقد روى عنه المحدث الشهير أبو القاسم بن عساكر^(٢) ويذكر المؤرخ البغدادي ابن الجوزي كيف أن نور الدين (كاتبه مراراً)^(٣).

ز - الأديب المؤرخ الشاعر العماد الأصفهاني: وفي قمة هؤلاء يقف الأديب الشاعر المؤرخ العماد الأصفهاني الذي قدم إلى دمشق عام ٥٦٢هـ وقد قدّمه كمال الدين الشهرزوري قاضي القضاة لنور الدين فاعتمده الأخير في عديد من المهام الإدارية والسياسية والإنشائية فضلاً عن الإفادة من قدراته العلمية والتدريسية حيث ولي المدرسة النورية التي سميت - بعدئذ - بالمدرسة العمادية نسبة إليه وليس ثمة من لا يعرف معطيات العماد المتنوعة الخصبة في حقول التاريخ والأدب والشعر والتي تم إنجاز الكثير منها في عصر نور الدين نفسه: الخريدة، البرق الشامي، تاريخ دولة آل سلجوق، زبدة النصر، الفيح القسي، ثم معطياته الشعرية التي لا تقل جمالاً وإبداعاً عن شعر أيّ من معاصريه الكبار كابن القيسراني وابن منير^(٤).

ح - الحسن بن أبي الحسن صافي مولى الأموي البغدادي، ملك النحاة كما يسميه سبط بن الجوزي ولد ببغداد سنة ٤٨٩هـ وقرأ النحو وأصول الفقه على عدد من الأساتذة ثم دخل الشام واستوطن دمشق وله ديوان شعر جيد ومدائح في وصف النبي ﷺ وكان يضم يده على المائة والمائتين ويمسي وهو صفر البيدين وقد عاش في ظل نور الدين إلى أن مات وكان يكتب إليه^(٥).

ط - أبو الفتح بن أبي الحسن الأشتري الفقيه: كان معيداً بالنظامية سافر إلى دمشق وجمع لنور الدين سيرة مختصرة، أفاد منها عدد من المؤرخين وبخاصة أبي شامة في كتابه (الروضتين)^(٦).

ي - أبو عثمان المنتخب بن أبي محمد البحري الواسطي الواعظ... ورد أربل ووعظ بها، وكان له قبول عظيم لدى الناس وسافر إلى نور الدين في الشام طلباً للجهاد وأنفذ له الأخير جملة من المال، لم يقبلها وردّها عليه^(٧).

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٤٧.

(٢) الدارس في تاريخ المدارس (١٥٣/٢).

(٣) المنتظم (٢٤٩/١٠) نور الدين محمود ص ١٤٨.

(٤) الدارس في تاريخ المدارس (٤٠٨/١ - ٤١١).

(٥) مرآة الزمان (٢٩٥/٨ - ٢٩٧).

(٦) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص ١٤٩.

(٧) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص ١٥٠.

ك - شيخ الشيخ عماد الدين أبو الفتح محمد بن علي بن حمويه: وفد إلى الشام عام ٥٦٣هـ وكان كبير الشأن في ميدان التصوف لم يكن له فيه يومذاك مساوٍ فأقبل عليه نور الدين ورغبه في المقام بالشام، وأحسن إليه، وأمر بإصدار منشور يعيّن الرجل بموجبه في مشيخة صوفية الشام^(١) وغير ذلك من العلماء والفقهاء الذين استقدمتهم الدولة أو جذبتهم الظروف المشجعة في دولة نور الدين والذين تدفقوا على حواضرها وملأوا نشاطهم العلمي والأدبي مؤسساتها التعليمية، وإداراتها كذلك حتى صارت بلاد الشام في عصره مهجراً لكبار عقول الأمة.

٥ - ابتعاد نور الدين عن التعصب:

لم يكن نور الدين محمود زنكي متحيزاً أو متعصباً إلى مذهب من المذاهب السنية لكي يسعى - من خلال نشاطه المدرسي هذا - إلى تحقيق نصر جزئي لمذهب دون مذهب وإلى تعزيز مواقع (فقه) ما بمواجهة سائر المعطيات الفقهية، كما يحدث في عصور التقليد والتبسس الفكري، إنه يطمح إلى ما هو أبعد من هذا بكثير: العمل على مستوى العقيدة الإسلامية في آفاقها الرحبية الواسعة وشموليتها التي تتسع لكل فكر إسلامي مُبدع واجتهاد خلّاق إن الرجل يطلّ على المسألة الفكرية من فوق، ويسعى إلى أن يكون الصراع الفكري، لا قتالاً وانشقاقاً في صميم الذات العقائدية للأمة المسلمة: ولكنه صراع بمواجهة خصم صليبي كان يتغلغل في حنايا الأرض ويقف بالمرصاد متحزراً لتدمير الشخصية الإسلامية، تماماً كما يسعى استعمار اليوم الجديد وصهويّته لتحقيقه وصراع من جهة أخرى بمواجهة انحرافات القرون الطويلة في مجرى التاريخ الإسلامي نفسه، وهذا هو الأخطر والأهم ومن ثم فإن قيادة الفكر الإسلامي صوب مواقع التأصيل والديمومة يجب أن تتحلّى بقدر كبير من تجاوز الصراعات الجانبية والعقد التاريخية صوب ما هو أعمّ وأشمل وأبعد مدى - وثمة حادثة - من بين عديد من الحوادث تناقلها المؤرخون - تحمل دلالتها الواضحة في هذا المجال^(٢): في أعقاب وفاة أحد كبار الفقهاء المشرفين على التدريس في حلب، انقسم هؤلاء إلى قسمين كل يريد مذهب من المذاهب ويسعى إلى استدعاء الرجل الذي يخلفه في التدريس.. وتطور الجدل إلى فتنة كادت تقع بين الفريقين فلما سمع نور الدين بذلك استدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة بحلب، وخرج إليهم نائبه - مجد الدين بن الداية - وقال لهم على لسانه: نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا لنشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين، وهذا الذي جرى بينكم لا يحسن ولا يليق، ثم علمهم أن نور الدين قرر استرضاء الفريقين باستدعاء الرجلين وتولية كل منهما إحدى المدارس الشهيرة في حلب^(٣) لقد وسع نور الدين محمود جبهة المواجهة تحت راية أهل السنة والجماعة واستطاع أن يرص الصفوف ويوحد الجهود أمام الأخطار الداخلية، والخارجية وحقق الأجواء الصالحة لكي ينجح مشروع أهل السنة والجماعة النهضوي الذي تبناه. إن التقليد والتعصب من أعظم أسباب التفرق والانحراف عن منهج الله الرباني، ومن أهم العوامل التي أدت إلى انتشار البدع والأهواء بين الناس، ففشت في

(١) البرق ص ١٣٥ نور الدين محمود ص ١٥٠.

(٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٦٥.

(٣) تاريخ حلب (٦٨/٢) نور الدين محمود ص ١٦٥.

أوساطهم، وحالت بينهم وبين سماع الحق والهدى، وتركوا بسببها طريق الكتاب الكريم والسنة المطهرة، التعصب للذنان يؤديان إلى مهاوي الردى ويقودان صاحبهما إلى مسالك الغواية والضلال ويصدان عن اتباع النور والهدى فتكون النتيجة تخبطاً وانتكاساً في الدنيا، وهلاكاً وخسرانا في الآخرة^(١). لقد انتشر مرض التعصب والتقليد في شعوب الأمة الإسلامية، لا سيما في العصور المتأخرة، وأصبح هو الأساس والأصل ونتج عن تفشيته نتائج وخيمة وأمور جسيمة وخطيرة ومن أشدها عدم قبول الحق، وردّه إذا جاء من المخالف^(٢) وقد قام نور الدين محمود بمعالجة ومحاربة التعصب وفي حقيقة الأمر محاربة لأسباب الفرقة وبالتالي خطوة نحو الأخذ بأسباب النهوض، فعلى المهتمين بأمر نهوض الأمة معالجة هذه الأمراض المعضلة من التعصب وغيرها التي كانت سبباً في تفريق الأمة شيعاً وأحزاباً.

٦ - أثر العلماء في دولة نور الدين:

كان لبعض العلماء المشتغلين بالتعليم والتربية والوعظ والإرشاد دور بارز في دولة نور الدين تمثل في الآتي:

أ - الجهاد ضد الصليبيين:

فقد كان عماد الدين وابنه نور الدين محمود زنكي يعملان بمشورة العلماء ومساندتهم حيث كانت لهم الكلمة النافذة والمكانة المرموقة والحظ الوافر في كل من الموصل وبلاد الشام في ذلك العهد^(٣)، ومن العلماء الذين كان لهم أثر بارز في الجهاد ضد الصليبيين، الحافظ المحدث أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر المتوفى سنة ١١٧٦/٥٧١م ومن أعماله التي قام بها لينضم إلى العلماء المجاهدين توجيه الحديث الشريف لخدمة الجهاد ضد الصليبيين باعتباره شيخ لأول دار تخصصية تنشأ لتدريس الحديث في الإسلام وهي دار الحديث النورية بدمشق فقد حرص الحافظ على تدريس ما يتعلق منه بباب الجهاد، والحث على فضائله، ودراسة الأحاديث والآداب المتعلقة به، وقد جمع لنور الدين أربعين حديثاً في فضائل الجهاد في جزء واحد دفعه إلى جمعه رغبته في حث الناس على فضائل الجهاد والاستشهاد في سبيل الله^(٤)، كما كان للعماد الأصفهاني الأديب الكاتب المتوفى سنة ١٢٠١/٥٩٧م أثر بارز في الجهاد ضد الصليبيين، فقد انتقل إلى دمشق ١١٦٦/٥٦٢م في أيام الملك نور الدين محمود، وكان سناً لنور الدين حيث تولى لديه العديد من الوظائف الهامة في الدولة مكنته من الإسهام بالمشورة والتدريس والتأليف، فكانت أعماله صورة صادقة من تجارب العلماء مع أحداث الجهاد في ذلك العهد^(٥).

ب - السفارات بين الدولة:

(١) في ظلال القرآن (٩٩١/٢) فقه النصر والتمكين ص ٢٥٩.

(٢) فقه النصر والتمكين ص ٢٦٠.

(٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٨٣.

(٤) معجم البلدان (٧٨/١٣).

(٥) معجم البلدان (١٤/١٩) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٨٤.

شارك بعض العلماء في العهد الزنكي بمهمة السفارة بين الدولة الزنكية والخلافة العباسية أو الدولة المعاصرة إما بهدف الاستنجاد ضد الصليبيين أو لقضاء مصلحة بين الدولتين ومن سفراء الاستنجاد طلب المعونة ضد الصليبيين القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري المتوفى ١٥٧٢هـ/١١٧٦م إذ أرسله الملك عماد الدين زنكي سفيراً من لدنه ليستجد بالخليفة العباسي المقتفي لأمر الله ٥٣٠ - ٥٥٥هـ/١١٣٥ - ١١٦٠م) والسلطان السلجوقي مسعود (٥٢٧ - ٥٤٧هـ/١١٣٣ - ١١٥٢م) عام ٥٣٢هـ/١١٣٧م) أثناء الهجوم الصليبي البيزنطي المشترك على حلب وغيرها من مدن الشام^(١) وقد مرّ تفصيل ذلك، كما واصل القاضي كمال الدين القيام بمهمة السفارة بين الدولة الزنكية والخلافة العباسية في عصر نور الدين محمود إذ اعتمده نور الدين سفيراً إلى الخليفة العباسي المستضيء (٥٦٦ - ٥٧٥هـ/١١٧٢م يطلب منه تقليداً بما في يده من البلاد (الشام ومصر والجزيرة والموصل) وبما في طاعته كديار بكر وما يجاوز ذلك كخلاط وبلاد أرسلان، يقول ابن الأثير: فأكرم الخليفة كمال الدين إكراماً لم يكرمه رسول قبله وأجيب إلى ما التمسه^(٢) كما برزت شخصيات من العلماء قاموا بمهمة السفارة بين نور الدين محمود في حلب والأتابك مجير الدين أبق بن محمد آخر الحكام البوريين (٥٣٤ - ٥٤٩هـ/١١٣٩ - ١١٥٤م) وذلك بعد الهجمات العسكرية المستمرة التي قام بها نور الدين محمود على مدينة دمشق سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م) وقد تولى المهمة الفقيه بُرهان الدين البلخي المتوفى سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م) بمشاركة الأمير أسد الدين شيركوه، وأخوه نجم الدين أيوب وتمت بين الجانبين اتفاقية سلام على شروط وقعت بينهما^(٣).

ج - تولى بعض المناصب المهمة في الدولة:

كالقضاء وقد تمّ الحديث عن ذلك وكتابة الإنشاء^(٤) وغير ذلك من المناصب التي يأتي بيانها بإذن الله في هذا الكتاب.

ويلاحظ في حديثنا عن مكانة العلماء في دولة نور الدين محمود أمور منها:

* أن نور الدين رحمه الله، قد استفاد من العلماء على اختلاف مذاهبهم رغم أنه كان حنفي المذهب. فارتفع فوق عصبية المذهب، وكان لها سطوتها آنذاك.

* أن عصر الملك العادل، كان حافلاً بالحركة العلمية مزدهراً بالعلماء والفقهاء والقضاة من ذوي العلم الغزير، والعاملين بعلمهم، ورغم ذلك كانوا يندشون مما يبيده السلطان من الفهم لمسائل طال الخلاف حولها، وكان يناقشهم فيها^(٥): ويعود ذلك إلى ذكاء لمام ونية حسنة، وعلم غزير، مما مكّنه من حل مشكلات عصره بينما عجز عنها قبله فحول وأساطين.

(١) الكامل في التاريخ نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٨٥.

(٢) الكامل في التاريخ نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٨٥.

(٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٨٦.

(٤) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٨٧، ١٨٩.

(٥) الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري ص ٣١٣.

* أن التعاون بين السلطان والعلماء العاملين قد أدى إلى تغيير الأوضاع المتردية، وتجديد أحوال الأمة، والارتقاء بها نحو الأفضل، مع إقامة العدل وطرد الغزاة في أماكن كثيرة (١) وسيأتي الحديث بإذن الله تعالى في مبحث قادم عن دور التعليم ووظائفها في العهد الزنكي، والمدرسين والطلاب ونظم التعليم ووسائل تحصيله في العهد الزنكي، وميادين العلوم وأبرز أعلامها وأهم المراكز العلمية.

خامساً: الشورى في دولة نور الدين محمود:

اهتم الملك العادل نور الدين محمود زنكي بالشورى، فقد رأى أهميتها في حيوية الأمة وأمنها واستقرارها، والأهم من ذلك كله أن الله جعل فيها سورة من سور القرآن الكريم حملت اسمها وهو مبدأ أرشد إليه القرآن الكريم وهو يمثل أرقى أشكال التعاون قال تعالى: {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ} (الشورى، آية: ٣٨). كما أمر الله تعالى رسوله ﷺ بمشاورة أصحابه بشكل لا يقبل التأويل في قوله تعالى: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} (آل عمران، آية: ١٥٩).

وقال الشاعر:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن :: برأي لبيب أو مشورة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة :: فإن الحوافي قوة للقوادم (٢)

والشورى واجبة على الحاكم في الشريعة الإسلامية، وإلى هذا القول ذهب كثير من العلماء والفقهاء فلا يحل للحاكم أن يتركها، وأن ينفرد برأيه دون مشورة المسلمين من أهل الشورى، كما لا يحل للأمة الإسلامية أن تسكت على ذلك، وأن تتركه ينفرد بالرأي دونها ويستبد بالأمر دون أن يشركها فيه (٣)، فالأمة لا تنهض إلا إذا أخذت بفقهاء النهوض والذي منه ممارسة الشورى في نطاقها الواسع ولقد اعتمدها نور الدين محمود ولم ينفرد باتخاذ القرارات بل تبادل الآراء في كل أمور الدولة، فكان له مجلس فقهاء يتألف من ممثلي سائر المذاهب والصوفية يبحث في أمور الإدارة والنوازل والميزانية.

١ - الشورى في القضايا العامة:

وثمة وثيقة قيمة يثبتها أبو شامة بنصها عن أحد المحاضر التي دونت بصدد عدد من قضايا الوقف والأملاك كانت قد أدخلت ضمن أوقاف الجامع الأموي بدمشق وسعى نور الدين إلى فصلها وإعادةها إلى قطاع المنافع العامة وبخاصة مسائل الدفاع والأمن، وقد تمثلت في تلك الوثيقة بوضوح الرغبة الجادة لدى نور الدين لأسلوب الشورى الحر باعتباره الطريق الذي لا طريق غيره للوصول

(١) المصدر نفسه ص ٣١٣.

(٢) مقومات النصر في ضوء القرآن والسنة (٤٢٢/١).

(٣) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم ص ٤٥٤.

إلى الحق^(١) ففي تاسع عشر صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة أحضر نور الدين أعيان دمشق من القضاة ومشايخ العلم والرؤساء^(٢) وسألهم عن المضاف إلى أوقاف الجامع بدمشق من المصالح ليفصلوها منها، وقال لهم: ليس العمل إلا ما تتفقون عليه وتشهدون به، وعلى هذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يجتمعون ويتشاورون في مصالح المسلمين، وليس يجوز لأحد منكم أن يعلم من ذلك شيئاً إلا ويذكره، ولا ينكر شيئاً مما يقوله غيره إلا وينكره، والساكت منكم مصدق للناطق ومصوب له. فشكروه على ما قال ودعوا له، وفصلوا له المصالح من الوقف، فقال نور الدين: إن أهم المصالح سد ثغور المسلمين وبناء السور المحيطة بدمشق والفضيل والخندق لصيانة المسلمين وحريمهم وأموالهم ثم سألهم عن فواضل الأوقاف هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين^(٣) فأفتى شرف الدين المالكي بجواز ذلك ومنهم من روى في مهلة النظر، وقال الشيخ ابن عسرون الشافعي: لا يجوز أن يصرف وقف مسجد إلى غيره، ولا وقف معين إلى جهة غير تلك الجهة، وإذا لم يكن بد من ذلك فليس طريقة إلا أن يقتضيه من إليه الأمر من بيت مال المسلمين فيصرفه في المصالح ويكون القضاء واجباً من بيت المال، فوافق الأئمة الحاضرون معه على ذلك. ثم سأل ابن أبي عسرون نور الدين: هل أنفق شيء قبل اليوم على سور دمشق وعلى بناء (بعض) العمارات المتعلقة بالجامع المعمور بغير إذن مولانا؟ وهل كان إلا مبلغاً للأمر في عمل ذلك؟ فقال نور الدين: لم ينفق ذلك ولا شيء منه إلا بإذني وأنا أمرت به^(٤).

٢ - مجالس متخصصة:

كان مجلسه ندوة كبيرة يجتمع إليها العلماء والفقهاء للبحث والنظر^(٥)، ولم تكن المناظرات التي شهدتها مجالسه ترحية للوقت وتخريجاً نظرياً للفروع على الأصول وترفاً فكرياً.. إنما كانت نشاطاً جاداً من أجل مجابهة المشاكل والتجارب المتجددة المتغيرة؛ بالحلول المستمدة من شريعة الإسلام وفقهما الواسع الكبير، ما دام الرجل يسعى إلى إعادة صياغة الحياة في ميادينها كافة وعلى مدى مساحاتها بما ينسجم وعقيدة الإسلام ورؤياه لموقع الإنسان في العالم... ومن ثم فإن ندوات كهذه أشبه بمجالس أو (لجان برلمانية) متخصصة تجتمع بين الحين والحين لحلّ مشكلة ما أو إعداد تشريع أو إقرار قانون ونحن نذكر هنا ذلك الاجتماع الموسع الذي مرّ ذكره مع حشد من العلماء الذين اختيروا لكي يمثلوا المذاهب الفقهية كافة من أجل النظر في عدد من قضايا الوقف والمصالح العامة^(٦) وقد شبه ابن الأثير مجلسه بمجلس رسول الله ﷺ مجلس حلماً وحياء، لا تؤين فيه الحرم ولا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشورة في أمر الجهاد وقصد بلاد العدو، ولا يتعدى هذا^(٧)...

(١) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم ص ٤٥٤.

(٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٨٠.

(٣) كتاب الروضتين (نقلاً عن نور الدين محمود ص ٨١).

(٤) المصدر نفسه ص ٨٢.

(٥) الباهر ص ١٧١ - ١٧٣، نور الدين محمود ص ١٣٣.

(٦) نور الدين محمود ص ١٣٣.

(٧) الباهر ص ١٧٣ نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٣٣.

وإلى روايته الأخرى التي يتحدث فيها عن قيام نور الدين باستحضار عدد من الفقهاء واستفتائهم في أخذ ما يحلّ له من: الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين، فأخذ ما أفتوه بحلّه ولم يتعدّه إلى غيره البتة^(١). فما يصدر عن ممثلي الشريعة الغراء يتوجب أن يكون ملزماً لكل إنسان سواء كان في القمة أم في القاعدة، وقولهم هو القول الفصل لأن نور الدين - وقد عرفنا مدى صدقه مع ربّه ومع نفسه ومع رعيته - ما كان يريد أن يمارس الاستشارات القانونية المزوجة، يبرز للناس أنه لا يقدم على عمل إلا بعد الاطلاع على رأي قادة فكرهم ومشرعى قوانينهم، ويسعى في الخفاء إلى تنفيذ ما كان قد اعتزمه مسبقاً مهما كانت درجة تناقضه مع طروحات اللجان الاستشارية والتشريعية والبرلمانية، التي ستكون بمثابة الرداء الخارجي الذي يحمي في داخله مضامين وممارسات لا تمتد إلى لون الرداء ونسيجه في شيء^(٢) وكان يكاتب العلماء للاستشارة، فقد ذكر ابن الجوزي أن نور الدين كاتبه مراراً^(٣) وكان نور الدين سأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة وكان يقول لمستشاريه من العلماء والفقهاء: بالله انظروا أي شيء علمتموه من أبواب البر والخير دلّونا عليه، وأشركونا في الثواب فقال له شرف الدين بن أبي عسرون: والله ما ترك المولى شيئاً من أبواب البر إلا وقد فعله، ولم يترك لأحد بعده فعل خير إلا وقد سبقه إليه^(٤).

٣ - فراسته في معرفة العلماء:

لم يكن الرجل يتعامل مع العلماء بحساب الجملة كما يقولون، حيث يختلط الفقيه بالجاهل، تحت ستار العلم، ويضيع الجيد بالردىء وحيث يبرز أحياناً من بين العلماء رجل أو اثنان أو أكثر، فيمتطوا المكانة التي بلغوها ويختبئوا خلف الرداء الذي لبسوه لكي يزيقوا حقيقة، أو يلبسوا باطلاً بحق، أو يشترخوا بآيات الله ثمناً قليلاً. إن الرجل يرفض الكذب، والكذب على الله وعلى الناس وعلى الحقيقة وبالتالي فهو يرفض الغش والتزوير والتضليل والخداع وهو - من الجهة الأخرى - يملك من الذكاء وعمق النظر وسرعة البديهة ما يجعله يزن الناس الذين يتعامل معهم بدقة عجيبة، كدقة الموازين، فهو كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه متحدثاً عن نفسه: لست بالخبّ^(٥)، ولا الخبّ يخدعني، ومن ثم يبدو أن ليس بمقدور أي رجل أن (يعبر) على بدهة نور الدين وتفحصه الذكي للرجال، حتى لو تدرثر بألف رداء علمي واختبأ خلف ستار، فهذه الحادثة التي يرويها لنا شاهد عصره العماد الأصفهاني تحمل دلالتها على علمية الرجل ورفضه للخرافة، وفهمه العميق للرجال: في رجب - يقول العماد - فوض إليّ نور الدين إحدى مدارسه وعوّل عليّ في التدريس والنظر في أوقافها وكان الفقيه فيها أبا البركات خضر بن شبل الدمشقي، فلما توفي سنة ٥٦٢ هـ خلف ولدين واستمر فيها على رسم الوالد، ثم خدعهما رجل مغربي استهواهما بعمل الكيمياء^(٦)، ونهج بهما

(١) الباهر ص ١٦٤.

(٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٣٤.

(٣) المنتظم (٢٤٩/١٠).

(٤) عيون الروضتين (٣٧٤/١).

(٥) الخب: المخادع.

(٦) يوم كانت الكيمياء دجلاً وشعوذة وسحراً ومحاولة لاستخراج الذهب من التراب بمعونة الجن والشياطين.

سبيل الإغواء فصاهراه وظاهراه فغاظ نور الدين هذا المعنى وأحضرهما واستوفى عليهما أنواع التوبيخ، فلم يجد من أحدهما لأمره سمعاً فقال لي: تسلّم الموضوع ورتبني فيه مدرساً وناظراً^(١).

والمقصود من كلامي أن الملك العادل نور الدين محمود زنكي مارس الشورى على أسس صحيحة في دولته وكانت له مجالس شورى يلتقي فيها القادة العسكريون والإداريون مع العلماء والفقهاء، فكل حاكم يريد لحكمه أن يستمر ولنظام دولته أن يستقر عليه أن يكون حريصاً على الإلمام بحقيقة الأوضاع ببلاده، والشورى خير سبيل لتحقيق هذه الغاية.

ومع تطور أمور الحياة لا غنى لأمة تريد أن تنهض عن مبدأ الشورى ولا مانع من ضبط ممارسة الشورى وفق نظام أو منشور أو قانون يعرف فيه ولي الأمر حدود ما ينبغي أن يشاور فيه ومتى وكيف؟ وتعرف الأمة حدود ما تستشار فيه ومتى وكيف؟ لأن الشكل الذي تتم به الشورى ليس مصبوباً في قالب حديدي^(٢)، فأشكال الشورى وأساليب تطبيقها ووسائل تحقيقها وإجراءاتها ليست من قبيل العقائد وليست من القواعد الشرعية المحكمة التي يجب التزامها بصورة واحدة في كل العصور والأزمنة، وإنما هي متروكة للتحري، والاجتهاد والبحث والاختيار، أما أصل الشورى فإنه من قبيل المحكم الثابت الذي لا يجوز تجاهله أو إهماله لأن الشورى في جميع الأزمنة والأزمنة مفيدة ومجدية، والدكتاتورية أو حكم الفرد في جميع الأزمنة والأزمنة كريمة ومخرية^(٣).

إن شؤون الحياة متعددة، ولكل شأن منها أناس هم المختصون فيه وهم أهل معرفته، ومعرفة ما يجب أن يكون عليه، وفي الأمة جانب القوة، وفي الأمة جانب القضاء وفض المنازعات وحسم الخصومات، وفيها جانب المال والاقتصاد، وفيها جانب السياسة وتدبير الشؤون الداخلية والخارجية، وفيها جانب الفنون الإدارية وفيها جانب التعليم والتربية، وفيها جانب الهندسة، وفيها جانب العلوم والمعارف الإنسانية، وفيها غير ذلك من الجوانب ولكل جانب أناس عرفوا فيه بنضج الآراء وعظيم الآثار، وطول الخبرة والمرن هؤلاء هم أهل الشورى في الشؤون المختلفة، وهم الذين يجب على الأمة أن تعرفهم بآثارهم وتمنحهم ثقتهم، وتنبئهم عنها في الرأي وهم الذين يرجع إليهم الحاكم لأخذ رأيهم واستشارتهم، وهم الوسيلة الدائمة في نظر الإسلام لمعرفة ما تسوس به الأمة أموراً مما لم يرد في المصادر الشرعية ويحتاج إلى اجتهاد^(٤) ولذلك ينبغي أن يعتمد في الشورى على أصحاب الاختصاص والخبرة في المسائل المعروضة التي تحتاج إلى نوع من المعرفة: ففي شؤون الدين والأحكام يستشار علماء الدين وفي شؤون العمران والهندسة ويستشار المهندسون وفي شؤون الصناعة يستشار خبراء الصناعة وفي شؤون التجارة يستشار خبراء التجارة وفي شؤون الزراعة يستشار خبراء الزراعة وهكذا. وهنا لا بد من توجيه الأنظار إلى أنه من الضروري أن يكون علماء الدين قاسماً مشتركاً في هذه الشؤون، حتى لا يخرج المستشارون في تقرير السياسات

(١) البرق ص ١١٩ - ١٢٠.

(٢) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم ص ٤٦٤.

(٣) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم ص ٤٦٥.

(٤) الشورى بين الأصالة والمعاصرة ص ٥٧.

المتنوعة عن حدود الشريعة^(١). لقد كان نور الدين يستشير كثيراً من كبار رجال دولته سواء من الإداريين أو السياسيين أو العلماء أو الفقهاء أو الأعيان وسنرى ذلك في هذا الكتاب بإذن الله تعالى.

* * *

(١) الشورى بين الأصالة والمعاصرة ص ٥٨، ٥٩.